الأدوات اللغوية في التضليل الإعلامي : مفهوم « الربيع » تاريخياً بين الثورة و الثورة المضادة مثالاً

الدكتورة: عبير العلي

مدرسة اللسانيات وعلوم اللغة

قسم اللغة الفرنسية – المعهد العالي للغات – جامعة: البعث

حمص – سوريا

البريد الإلكتروني: abir.alali@gmail.com

ملخص

في هذا المقال، نحاول تسليطَ الضوء على بعض الأدوات اللغوية المستخدَمة تاريخياً في الصحافة المكتوبة، الأميركية و الأوروبية على وجه الخصوص، لتدوير مفهوم « الربيع » و استخدامه على نطاقٍ واسع لتوصيف الحالات الثوريةِ الدموية التي عرفتها معظمُ البلاد التي دخلها المحتلُّ الأميركي و الأوروبي. نستعرضُ لهذا الغرض تطورَ مفهوم « الربيع » بين قطبيِّ الثورةِ و الثورةِ المضادة و كيف أنّ هذا المفهوم أصبح لباس الحملان لتضمين كلِّ المعاني الخارجة من مجال مفهوم « الربيع » و المناقضة له في أحيانٍ عدّة.

كلمات مفتاحية: الربيع، مفهوم، الثورة، توسع، نقيض

Language mechanisms in the manipulation by medias: the notion of « spring » between revolution and counter-revolution as an example

Abir ALALI
Professor of linguistics and language sciences
Higher National Institut of languages
Homs –Syria
abir.alali@gmail.com

Abstract

In this article, we are trying to spotlight some linguistic mechanisms used by written press, in the United states and in Europe in particular, to recycle the notion of « spring » and to reuse it on a large scale to describe the bloody revolutionary situations experienced by most countries being under American or European influence. To achieve this goal, we will explore the historical evolution of the notion of « spring » between the two poles: revolution and counter-revolution. We will also show how « spring » as a form let lots of external meanings compared to those in the notional domain pass under its softness, and how it represents the misinterpretation most often.

Keywords: spring, notion, revolution, extension, antithesis

مقدمة

تميَّزَ العربُ قديماً بقدرتِهم الفريدةِ على قراءةِ النجوم و مطالعةِ أحوالِ الطقسِ من ملامحِ السماء، لكنَّهم اليومَ يبدون عاجزين عن تمييزِ فصولِ السنةِ بعضِها عن بعض، و يرونَ في قيظِ الدماء و صقيعِ الإنسانيةِ ربيعاً. ما الذي أصابَهم حتى باتَ الغرباءُ يملونَ عليهم أحوالَ السماءِ المخيِّمةِ فوقَهم، و كيف أدخلَهم هؤلاء في حالةٍ من الفصامِ بين ما يرونَ بأعينِهم و بينَ « الربيعِ » الذي يُرادُ لهم أنْ يروه في كلِّ مكان ؟ نفتحُ كتاباً فيباغتُنا هذا « الربيعُ » من بين دفتَيْه، و نفردُ صحيفةً بين يديْنا فنراه ممدّداً على صفحاتِها بثيابِه الملطّخةِ بالدماء، فيزرعُ الدهشةَ و الغضبَ في عيوننا الشاهدةِ عليه، لكنه لا ينفكُّ يقولُ لنا بأنَّ له جناحَيْ يمامةٍ بيضاءَ تحملُ بين طرفي منقارِها الصغيرِ غصيناً من شجرةِ زيتونٍ عتيقةٍ تنشدُ به السلامَ و الحرية و العدالةَ لبعضِ أهلِ الأرض. ويلٌ لعيونٍ تأبى ألوانَ ربيعِهم !

في هذا المقال، نحاول تسليطَ الضوءِ على هذه المفارقةِ بين ما تشهدُه عيونُ الرأيِ العامِّ من مظاهرَ ثوريةٍ تعسفيةٍ و بين ما يُقالُ و يُلقَّنُ لها في أروقةِ الصحافةِ المكتوبة حول حلولِ « الربيع » في رحابِ البلاد العربية، و سنحاولُ التركيزَ بخاصة على الناحيةِ اللغوية التي اعتمدتْها بعضُ الصّحفِ الأميركية بُعيدَ الاحتلالِ الأميركي للعراق، و بعضُ الصحفِ الأوروبية، الفرنسيةِ منها على وجهِ التحديد، في مواقعَ تاريخيةٍ ثوريّةٍ متفرقة. اختيارُنا للصحافةِ المكتوبةِ التي تُصدرُ أعداداً ورقيّةً بالتوازي مع نسختِها الرقميةِ من دون سواها من الوسائلِ الإعلاميّةِ يأتي من أهميةِ دورِها و آلياتِها التوثيقيّة لتاريخِ و مسيرةِ الشعوبِ، و هو دورٌ يمكنُ ألا تحفلَ به الوسائلُ الإعلاميةُ الأخرى، الرقميةُ منها على وجهِ الخصوص، نظراً للسلطةِ التي يستحوذُ بها المشرفونَ على إدارتِها في إظهارِ و نشرِ ما يريدونَ من معطياتٍ و مسحِ و إخفاءِ ما لا يرضيهم منها جملةً و تفصيلاً في غضونِ ثوان. سنلقي أيضاً الضوءَ على آلياتِ هذه الصحف في تدويرِ معاني مفهومِ « الربيع » و إعادةِ تعبئتِه بمعانٍ كثيراً ما أشارتْ للضدِّ قبلَ إعادتِها إلى الاستهلاكِ في حيّزِ الاستخدامِ اليوميِّ للرأيِ العام.

1 الربيعُ في جزيرةِ العرب

في عقيدة الخصبِ القديمة و بلاد الحضاراتِ الزراعية، لطالما كان الربيعُ رمزاً للخصوبةِ و التجددِ و البهجة و التكاثرِ حيث نجدُ أنه في السريانيةِ كما في العربية، و هي لغةٌ من شقيقات اللغةُ العربية، يشيرُ الجذرُ « رب » إلى السيد و « ربت » السيدة و « رب [1]» هو من الآباءِ العربِ القدامى (رب – سر – مر) الذين كانوا موضعَ قداسةٍ لدى شعوبِ جزيرةِ العربِ بخارطتها القديمة[2] في عقيدة الخصبِ الزراعية. عندما نضيفُ حرفَ الأبجدية الأول « ألفا »، الذي يرمزُ للثورِ إشارةً إلى المخصِّبِ، إلى يسارِ كلمةِ « رب » فإننا نحصلُ على معانٍ تفيدُ الكثرةَ و النماءَ :

رب–أ : زادَ، كثُرَ، نما

و كما أنّ حرفَ « الألفا » كثيراً ما يُستَبدَلُ بحرفِ « العين »، فإننا لو وضعْنا هذا الأخيرَ في الموضعِ ذاتِه سنحصلُ على كلمة « ربع » التي تفيدُ معاني الإخصاب و من بينها كلمةُ « الربيع » بمعنى « الخصيب »، و تشيرُ كذلك إلى العائلةِ و هي ما تزالُ مستخدمةً حتى يومنا هذا في كثيرٍ من المناطقِ السورية :

رب–ع : أخصبَ و أربعَ تزاوجَ، و الربيعُ و الرّابعُ هو المخصِّب و الربيعُ هو فصلُ الخصب.

---

[1] استناداً إلى أبحاثِ أحمد داوود، فإنّ منطقةَ سكنى الأبِ « رب » و أبنائِه كانت في جوفِ شبهِ جزيرةِ العرب، و كانت ذريتُه تُعرفُ باسم « أربي أو عربي »، أما منطقةُ « أربت أو عربت » التي سكنوها فهي اليوم ما نعرفُه باسم شبه جزيرة العرب و ما مدينةُ « ربة » الواقعةُ في جنوبِ عسير إلا إحدى الدلائلِ العمرانيةِ على إعمارِ « رب » و أبنائه « ع-رب » لهذه المنطقة. نشيرُ هنا أيضاً إلى أنّ ما عُرِفَ باسم « ربة عمون أو ربة بني عمون » أو « كعبة نجران » حسبَ الباحث داوود هي دارةٌ لعشتار لأنّ أحدَ المعاني التي تفيدُنا بها كلمةُ « ربة »، بالإضافةِ إلى الملكةِ و السيدةِ، هي الدارُ أو الصومعةُ أو القلعةُ أو المنارةُ أو البناءُ الذي يُطافُ حولَه و هي في وادي (أو نهر) خضارة (أو وادي حدرتا بالسريانية أو وادي حبونا) الذي يعني كذلك الصومعةَ و القلعةَ و الدارَ و الذي كان ينبعُ في ما يُعرف اليوم بمنطقةِ نجران. « كعبة نجران » كانت إذاً صومعةً يُطافُ حولَها لتقديسِ عشتارَ قبلَ أنْ تتحولَ إلى كنيسةٍ في عهدِ أبرهةَ الحبشي. لمزيدٍ من المعلومات حولَ قصة إيزيس و أوزيريس التي جرتْ أحداثُها في منطقةِ وادي حدرتا (حبونا)، يمكن مراجعة :

داوود، أحمد. (2012)، *موسوعة نينورتا التاريخية*، الجزء الأول : قصة الخلق، دار نينورتا، دمشق، ص. 275-276

[2] استناداً إلى أبحاث أحمد داوود في تاريخ سوريا القديم، فإنّ جزيرةَ العرب، التي كانت المهدَ الأولَ للحضارة على هذا الكوكب منذ الألفِ الرابع عشرَ قبل الميلاد، كانت تمتدُّ حدودُها من ضفةِ الخليج الشرقية شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً و من البحرِ الأسودِ (البحر الأعلى) شمالاً إلى بحرِ العربِ (البحر الأدنى) جنوباً. للمزيد من المعلومات، يمكن الرجوع إلى :

داوود، أحمد. (2003)، *تاريخ سوريا القديم : تصحيح و تحرير*، الطبعة الثالثة، دار الصفدي، دمشق

أمّا إذا أضفنا « ألفا » أو « العين » إلى يمينِ الجذرِ فإنّنا نصلُ إلى الأبناءِ من أقانيمِ الخصبِ « رب » و « ربت »[3] :

ع–رب : ابن « رب » أو ذريته

فعلُ « ربع [4]» المقترنُ بعمليةِ التخصيب، و كذلك بالنسبةِ للربيع الذي يرمزُ لفصلِ الربيع الخصيبِ و الكلأِ و العشب و « المربع » و هو الرحم، جميعُها مفرداتٌ ارتبطتْ بالأمِ الكبرى عشتار التي كانت تتزيّنُ بأبهى الحُللِ للقاءِ محبوبِها دوموزي « روح الخصب » عند قيامتِه من الموت. كان يعتلي الثوبُ الذي كانتْ ترتديه كلُّ أصنافِ الزهرِ و النباتِ و الثمرِ و عجائبِ الأصدافِ من البحار و أشكالِ تطورِ القمر، أي إنّها كانت تزدانُ كما الطبيعةُ بكلِّ ما يدلُّ على الخصوبةِ و الخلقِ و التكاثرِ، و أصبحَ يومُ هذا اللقاء عيداً للأمِّ الكبرى[5] يبدأُ الاحتفالُ به في 21 من آذار لتبلغَ مباهجُ الفرحِ ذروتَها في الرابع من نيسان، و التي كان يُعبَّرُ عنها بحلقاتِ الدبكةِ و هي أولُ أنواعِ الرقصِ المعروفِ في تاريخ البشرية.

في اللغة العربية، ما يزال الربيعُ، إلى يومنا هذا، يشيرُ إلى مظاهرِ الطبيعةِ في أحدِ فصول السنة الذي يحملُ هذا الاسم، و هو يشيرُ أيضاً إلى الكلأِ و العشب. في تعريفِه، نجدُ محمد

---

[3] إننا نحصلُ كذلك على المعاني نفسِها من « ربع » و « عرب » بإضافةِ « ألفا » و « العين » إلى يسارِ و يمينِ الجذور « سر » و « مر ».

[4] انتقلَ الجذرُ « رب »، الذي يرمزُ للمخصِّبِ و السيد و الإله و القائدِ و الذي يدخلُ في تركيبِ كلمة « ربيع » و كذلك الجذرُ المقلوبُ « بر » الذي يرمزُ للخيرِ و القمح، إلى اللغاتِ الأخرى بحيث أنه يمكنُ لنا أن نلحظَ وجودَه في عامةِ الكلمات المقابلةِ للربيع مثل :

S**pr**ing (English), **pr**intemps (French), **pr**imavera (Italian), **fr**uhling (German : alternating p-f), **pr**užina (Slovak)

مع الملاحظة إلى أننا نجدُ مقابلَ الحرف بيتا في هذه اللغاتِ الأحرفَ التالية : p ; b ; f

و أنّ « الفاء » يدخلُ أيضاً في تركيبِ الجذر « فر » الذي نجدُه في اسمِ آخرَ لعشتار و هو « ني-لو**فر** » و تعني ربّةَ الزهر حيث أنّ الجذرَ « فر » في السريانية و « وفر » في العربية يفيدُ النماءَ و الوفرةَ و الكثرةَ و الخصبَ، و منه جاءَ أيضاً اسمُ الملكةِ المصرية ني-**فر** تي تي، و اعتُبِرَتْ زهرةُ النيلوفر قديماً مقدسةً نظراً لما يربطُها بالأمِّ عشتار. في اللغة العربيةِ كذلك نلحظُ وجودَ الجذرِ الثنائي « فر » و يفيدُ أيضاً معنى الكثرة في تكوين الجذر الثلاثي « نفر » : استنفرَ القومُ فنفروا معه و أنفَروه أيّ نصروه و مدّوه. نفرُ القوم : جماعتُهم. النفرة و النَّفْر و النّفير : الجماعةُ من الناس. أنفار جمع نفَر : رهطُ الإنسان و عشيرته. نفَرَه و ينفِرُه و ينفُرُه أي قضى عليه بالغلبةِ (لسان العرب، جذر *نفر*)

[5] حملَ عيدُ الأم الكبرى اسمَ « أم الزلف »، و هي كلمةٌ سريانيةٌ تحملُ عدةَ معاني كالثوبِ المزين و فعلِ الزينة و التجمُّلِ و التيسِ و الغزالِ و الصدفِ، و ما يزالُ هذا الاسمُ يُغنَّى في التراث السوري إلى يومنا هذا « عالعين يا أم الزلف زلفا يا موليا ». للتوسع حول هذه النقطة يمكنُ الرجوع إلى داوود، أحمد. (2012)، *تاريخ سوريا الحضاري القديم*، الجزء الأول، دار نينورتا، دمشق.

بن أبي بكر الرازي مثلاً يصفُه قائلاً « الربيعَ عند العربِ ربيعان : ربيعُ الشهورِ و ربيعُ الأزمنة. فربيعُ الشهور شهرانِ بعدَ صَفرٍ و لا يُقالُ فيه إلا شهرُ ربيعٍ الأولِ و شهرُ ربيعٍ الآخرِ. و أمّا ربيعُ الأزمنةِ فربيعان : الربيعُ الأولُ و هو الذي تأتي فيه الكمأةُ و النورُ و هو ربيعُ الكلأِ. و الربيعُ الثاني و هو الذي تُدركُ فيه الثمارُ، و من الناسِ مَن يسمّيه الربيعَ الأولَ[6]». و الربيعُ هو أيضاً قوةُ الشبابِ و فتوّتِه.

و للأديبِ ميخائيل نعيمة قصيدةٌ[7] يسطعُ فيها الربيعُ بأبهى معانيه و صورِه الجماليّة، نذكرُ منها هنا بعضَ الأبيات :

لكن سينصرفُ الشتا و تعودُ أيامُ الربيع
فتفكَّ جسمكَ من عقالٍ مكَّنتْه يدُ الصقيع
و البدرُ يبسطُ من سماه عليكَ ستراً من لجين
و الشمسُ تسترُ بالأزاهرِ منكبيكَ العاريَيْن
و الحوْرُ ينسى ما اعتراهُ من المصائبِ و المحن
و يعودُ يشمخُ أنفُه و يميسُ مخضرَّ الفنن
و تعودُ للصفصافِ بعدَ الشيبِ أيامُ الشباب
فيغرِّدُ الحسونُ فوق غصونِه بدلَ الغراب

2 معاني الربيع في مجال المفهوم نظرياً

بغيةَ تفسيرِ انتقالِ كلمة « الربيع » من إطارِ المفهوم ذاتِ الصلةِ بالخصوبة و التكاثرِ و النماءِ إلى إطارِ المفهوم المتعلقِ بالفناءِ و الدمارِ و العنف في خطابِ الصحافةِ المكتوبة، سوف نستندُ إلى شروحاتِ عالم اللغويات أنطوان كوليولي حول تكوينِ مجالِ المفهوم[8]. حسبَ هذه النظرية، فإنّ المفهومَ يأخذُ بالتطور بدايةً في نطاقِ وحداتِ الإسناد « referential occurrences » التي تتعرفُ على بعضِها من خلالِ عمليةِ التوافقِ « identification »، و هي العمليةُ التي تؤدّي إلى تكثيفِ المفهوم « intension » حول

[6] راجع *مختار الصحاح* (جذر *ربع*).
[7] عنوانُ القصيدةِ *النهرُ المتجمّد* لميخائيل نعيمة
[8] للمزيد حول هذه النظرية، يمكن الرجوع إلى :
Culioli, Antoine. (1990), *Pour une linguistique de l'Énonciation : Opérations et représentations* (T. 1), Ophrys, coll. L'homme dans la langue, Paris

نقطةِ معنىً مشتركةٍ بين كلِّ وحداتِ الإسنادِ داخلَ حدودِ المفهوم. عندما تبدأُ معاني المفهومِ بالتطور في ضوءِ ما يجعلُ « occurrences » مختلفةً عن بعضِها البعض، فإنّ ذلك يعني أنّ المتكلمَ يركّزُ على الفوارقِ بين المعاني « differentiation » خلافاً للعمليةِ السابقة « identification » التي تتجمَّعُ فيها الوحداتُ حولَ ما هو مشتركٌ بين المعاني « organizing center ». هذه الفوارق المعنويةُ يمكنُ لها أيضاً، كما المعاني المكثَّفةُ داخلَ حدودِ مجالِ المفهوم، أن تؤدي دورَ المكمِّلِ للمعنى الأساسي « complementary ». لكن عندما يخرجُ المعنى الأساس من مجالِ المفهوم إلى النقيضِ تماماً، و يتخلّى عن كلِّ ما كان يصلُ معاني بعضِها ببعض، فذلك يعني أنّ المتكلمَ نقلَ المعنى بدايةً إلى خارج حدود المفهوم « outside of notional domain »، و وضعَه من ثمَّ في مجال « alterity »، فصارَ المفهومُ يحملُ معانٍ معاكسة لتلك التي تطورَتْ داخلَ مجالِ المفهوم.

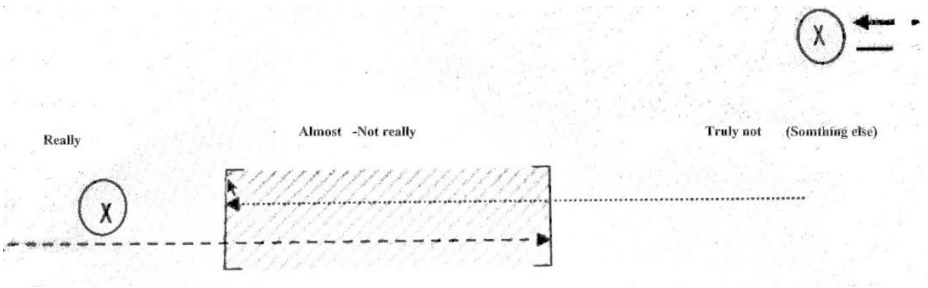

صورة 1[9]

في حالةِ كلمة « الربيع »، فإن معانيها بدايةً كانت كلها تشيرُ للتكاثر و الولادةِ و الخصوبةِ و البهجة، أي إنّ المفهومَ هنا تكثَّفَ حول كلِّ ما يتعلقُ بنماء الخيرِ « intensification within the notional domain »، و من ثمَّ أخذَ المفهومُ بالتوسّع « extension[10] » دون إهمالِ المعنى الأساس ليشيرَ إلى الزواج و التزاوج و أفراد العائلة و إلى كلِّ ما يمكنُ إلصاقُ وصفِ الجمال إليه « differentiation ». لكنّ المفهومَ اليوم، في لغة بعضِ

[9] تم أخذ هذه الصورة من :
Culioli, Antoine. (1983), *Notes du séminaire de D.E.A*, p. 34, version électronique.

[10] يمكن الرجوع إلى :
Culioli, Antoine. (1991), « Structuration d'une notion et typologie lexicale. À propos de la distinction dense, discret, compact », BULAG 17, Université de Besançon, 7-12, repris in T. 3 : 9-16.

الصحافة المكتوبة عن الثوراتِ التي تصفُها مستخدمةً كلمة « ربيع »، أصبحَ خارجَ حدود مجاله الأساس، و باتَ يمثّلُ النقيضَ تماماً و ذلك بالنظر إلى التطورِ الذي أصابَ أيضاً الاستخدامَ الإعلاميّ لمفهوم « الثورة ». بعبارةٍ أخرى، نحن لا نبحثُ هنا عن الاعتراضِ على توصيف الربيع بكونه « ثورياً »، و لكن بشريطة أن يصبَّ هذا التوصيف في خانة المفهوم الأساسي للربيع بحيث يدلُّ مثلاً على ثورةٍ علميّةٍ و اقتصاديةٍ و فكريةٍ و إنسانيةٍ، أيّ بالشكلِ الثوري الذي يقود بأساليبِه و نتائجِه على السواء إلى الارتقاءِ بالبشرِ و توحيدِهم و إرساءِ أواصر العدالةِ و الحريةِ. أمّا « الربيعُ » الذي نرصدُ هنا انقلابَ معناه الثوريّ إلى النقيض، فهو ذاكَ الذي يحطُّ من قدْرِ البشرِ، و يسوقُ لهم العبوديةَ و الفقرَ و الجهلَ و الدماءَ كما تحدَّثْنا وقائعُ « الربيع العربي ». اللافت في الأمر أنَّ المفهومَ عادَ هنا للتكاثف لكن ضمنَ كلماتٍ ذاتِ صلةٍ بالمعنى النقيض « intension in the alterity » مثل « تمرّد، عصيان، تسلّح، انتفاضة، ثورة مضادّة، ديمقراطية، حرب جيدة، إرهاب جيد (حلال) ».

ربيعٌ مصري، ربيعُ تونس، ربيعٌ عربي، ربيعُ الشعوب العربية، ثورةُ الياسمين و غيرها من العبارات المزهرة التي أصبحت لازمةً لكلِّ مقالٍ عن حركاتِ الاعتراضِ الشعبية في البلاد العربيةِ منذ نهاية 2010 و بدايةِ عام 2011. و ها هو بدوره، الرئيسُ الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي، يبشرُ بقدومِ « ربيع الشعوب العربية » خلال عشاءٍ جمعَه بالمجلس التمثيلي للمؤسسات اليهوديةِ في فرنسا في 9 شباط 2011[11].

سطعَ استخدامُ تعبيرِ « الربيع » أربعَ مراتٍ، على الأقلّ، في التاريخِ المعاصرِ : عشيّةَ الحربِ العالميّةِ الثانيةِ و بدايةِ الحربِ الباردة[12] و ما أدّتْ إليه من انقسامٍ للقارة الأوروبية في كتلتين، و من ثمَّ سقوطِ الأنظمةِ الشيوعية في أوروبا الشرقيةِ بين نهاية الثمانينات و بدايةِ التسعينات من القرنِ الماضي. عادتْ كلمةُ « الربيع » إلى حيّزِ الاستخدامِ في الصحافة

[11] حول هذا الاجتماع، يمكن الرجوع إلى المقال التالي في صحيفة*لوبوان* الفرنسية :
DÎNER DU CRIF - Sarkozy rappelle les "racines juives" de la France - Le Point

[12] استخدمَ الروائيُ البريطاني جورج أورويل تعبيرَ « الحرب الباردة » لأولِ مرَّةٍ في روايتِه *you and the atom bomb* لوصف المشهد العالمي و سياسةِ الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، كما استخدمَه للحديثِ عن سياسةِ هتلر عام 1938 و ترافقَ هذا التعبيرُ باستعاراتٍ عن الطقس كالتجلّدِ و الانحباسِ الحراري و الذوبان « glaciation, warming, thawing ». عاد هذا التعبيرُ إلى الساحة الإعلامية مع تصاعدِ التوترِ بين أمريكا و روسيا على خلفيةِ الأزمةِ الأوكرانيةِ التي بدأتْ في تشرين الثاني من عامِ 2013 تحت مسمّى « الحرب الباردة الجديدة أو الحرب الباردة الثانية أو حتى 2.0 ».

المكتوبةِ مرفقةً هذه المرة بتوصيف « عربيّ » مع الاحتلالِ الأميركي للعراق، و ظهرتْ الكلمةُ من جديدٍ مع اندلاع الاحتجاجاتِ في تونسَ في شهرِ كانونَ الأول من عام 2010. هذا الاستخدامُ المتواترُ لتعبيرِ « الربيع » يوحي إلينا بأنّ البحثَ عن كلمة جديدةٍ لتوصيف واقعِ الاحتجاجاتِ التي اجتاحتْ بلاداً معينةً عبر التاريخِ لم يُشكِّل هاجساً لدى الشريحةِ العظمى من المفكرين و خبراءِ السياسة، فنراهم لجؤوا إليه عند كل لحظة حراكٍ شعبوية. لا بدَّ لنا أيضاً هنا من التساؤلِ : لماذا الحديثُ عن الربيعِ مع أنّ الطقسَ الذي انطلقَ فيه الحراكُ الشعبي باردٌ و ممطر[13]، أمْ أنّ الصحفيين و خبراءَ الجيوسياسة، و الذين يصرّون على استخدامِ مصطلحاتٍ متعلقة بالربيع لتوصيف حالةِ الاحتجاجِ التي انتقلتْ عدواها طرداً مع تطورِ هذا الخطابِ الصحفي إلى بلدانٍ عربية أخرى، لهم قدرةٌ خاصةٌ على استشعار قدومِ الربيع بينما براعمُه تشقُّ جوفَ الأرض ؟

3 تكون معاني الربيع عملياً عبر التاريخ

لفهمِ مدى الخفةِ و السهولةِ التي تمَّ بها تداولُ تعبيرِ « الربيع » كتوصيفٍ للتحركاتِ الثورية، لنبدأ باستعراضِ بعضِ الأمثلةِ عن استخدامِه، عند بعضِ المفكرينَ و بعضِ أروقةِ الصحافةِ المكتوبة، بدايةً في المرحلة التاريخيةِ التي مهّدَت ل « ثورات الشعوب »، ثمَّ في مرحلة الاحتلالِ الأمريكي للعراق التي أسهمت، إلى حدٍّ كبير، في تعبئة مفهومِ « الربيع » بالشكلِ الذي عرفتْه الحركاتُ الاحتجاجيةُ في الوطن العربي منذ نهايةِ 2010.

3.1 استخدامُ « الربيع » في الفترةِ بين الثورةِ الفرنسيةِ و « ثورات الشعوب »

دأبَ الإعلامُ بأنواعِه كلها، في الآونةِ الأخيرة، على توصيفِ الأحداثِ الأخيرة التي اندلعت شرارتُها في الوطن العربي تحت عنوان « الربيع العربي »، و راحتِ الأقلامُ

[13] آلان غاريغو، أستاذُ العلوم السياسية في جامعة باريس 10، يستخدمُ دلالاتِ الطقس ليشيرَ، بطريقةٍ غير مباشرة، إلى أنّ الربيعَ يخصُّ الأحداثَ التي عرفتْها باريسُ مع انطلاق شرارةِ « ربيع الشعوب »، فيبتدأُ مقالُه الذي نشرَه موقعُ *le Monde diplomatique* عام 2010 قائلاً أنّه في عام 1848، بدأ الربيعُ في باريسَ في الثاني و العشرين من شهر شباط « En 1848, le printemps commence le 22 Février, à Paris »
https://www.monde-diplomatique.fr/2011/05/GARRIGOU/20479

الصحفيةُ تحللُها بالمقارنةِ مع ما يُسمَّى ب « ثورات الشعوب (ربيع الشعوب) [14]» 1848. ترافقَ الحديثُ عن « ثوراتِ الشعوب » هذه بعيد انطلاقِها مع تعبيرِ « الربيع » الذي عملَ كثيرٌ من المفكرينَ آنذاك على تعميمِ استخدامِه و نقلِه إلى كثيرٍ من اللغاتِ الأوروبية.

استخدامُ تعبيرِ « ربيع ... » لتوصيفِ الحراكِ الشعبيِّ لم يملك غالباً روابطَ حقيقيةً مع الفصلِ الذي كان ينطلقُ فيه هذا الحراك. خلال الحربِ الباردة مثلاً، كثيرةٌ كانت الأقلامُ الأميركية التي وصفت الثورةَ التي قامَ بها مقاتلون هنغاريون ضدَّ السوفييت في عام 1956 ب « ربيع بودابست »، كما وصفَت ثورةَ تشيكوسلوفاكيا على السوفييت باسم « ربيع براغ » مطلع 1968. لا بدَّ هنا من الإشارة إلى أنه في هذه المرحلة التاريخية، كان معنى « الربيع » ينتقلُ من داخل حدودِ مجال المفهوم إلى خارجه و يعودُ إلى المجال من جديد حسب تعبير كوليولي. السببُ الأساسيُ وراءَ ذلك هو تباينُ المواقفِ بين المفكرين الأوروبيين آنذاك إزاءَ الأحداثِ الحاصلة في قارتهم، أو أقلّه بسببِ الصعوبةِ التي ينطوي عليها اتخاذُ موقفٍ جازمٍ إزاء أحداثٍ يَصعبُ التكهنِ بمآلِها. على سبيل المثال، استُخدِم تعبيرُ « ربيع الشعوب » في أعقابِ الثورةِ الفرنسية في معرضِ الدفاع عن « قِيم » هذه الثورةِ، و تسويغ العنفِ الذي نتجَ عنها بالإشارة إلى أنّ هذه الثورة 1789 [15]تمثّلُ مرحلةَ ما قبلَ الربيع التي أَتتْ أُكُلَها مع ثوراتِ 1848. أيّ إنّ الثورةَ الفرنسيةَ كانت نوعاً من مخاضٍ أدّى إلى ولادة « ربيع الشعوب ». لتوصيفِ هذا المخاض، لجأ البعضُ من المؤرخين إلى الاستعاراتِ المناخيةِ مستخدمينَ تعبيرَ « رياح الحرية » لوصفِ أحداثِ الثورة الفرنسية. هنا نشيرُ إلى أنّ هؤلاء المؤرخين حددوا القارةَ الأمريكية في عام 1776 كنقطةِ بدايةٍ لهذه « الرياح » التي وصلتْ إلى أوروبا

---

[14]حسب كارستين مارتن، فإنّ تعبيرَ « ربيع الشعوب » ظهرَ لأولِ مرّةٍ عام 1818 في جريدةِ الميزان « Die Wage » التي يديرُها لودفيغ بورن، و بورن كان قد بشّرَ بقدومِ هذا الربيع قبل أن تندلعَ الثوراتُ في أوروبا. في ديوانه « رسائل باريس » 1830، يُكثرُ بورن من الاستعاراتِ ذاتِ العلاقةِ بالطبيعة و التي تحملُ مدلولاتٍ سياسية مرتبطةٍ بالأحداثِ التي اندلعتْ في باريس في تموز 1830 و التي كان بورن قد تنبّأ، وسطَ سعادةٍ غامرة، بعدوى اشتعالِها في بلدانَ أوروبيةٍ أخرى، للمزيدِ حول هذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى :

Carsten, Martin. (2005), *Freiheit, o Völkerfrühling!: Die Kollektivsymbolik der Jahreszeiten im politisch-lyrischen Diskurs des Vormärz (1815-1849)*, Dortmund

[15]المؤرخ الفرنسي جان بروآا و هو عضو في الحزب الشيوعي، يعتبر أن كارل ماركس و الماركسية معا أعادا الشباب إلى الثورة الفرنسية

« On pourrait donc aller jusqu'à avancer qu'à travers le marxisme et par lui (Marx) la Révolution française retrouve une nouvelle jeunesse », Bruah, Jean. (1966), « La Révolution française et la formation de la pensée de Marx », https://www.persee.fr/doc/ahrf_0003-4436_1966_num_184_1_3873

و أخذتْ مفاعيلُها بالظهور منذ عام 1780[16]. بناءً عليه، فإنه مع اندلاع ثوراتِ 1848 في أوروبا، عدَّ بعضُ المفكرين ما يحدث مؤشرات لاستقرارِ نمط « الحرية » الذي عرفتْه القارةُ الأميركيةُ في أوروبا. فعلى سبيلِ المثال، استخدمَ الفيلسوفُ و الباحثُ الاقتصاديُ الفرنسي فيكتور كونسيديران تعبيرَ « الديمقراطية الأوروبية » لوصفِ هذه الثورات، و كذلك عدَّ الشاعرُ الفرنسي ألفونس دو لامارتين ثورةَ الأمس (الثورة الفرنسية 1789) التي مهّدَت لأحداثِ 1848 خطوةً نحو الأمام بمسافةٍ زمنيةٍ قدرُها نصفُ قرن تقريباً[17]. من جهتِه، يستخدمُ المؤرخُ الفرنسيُ جان بروآ تعبيرَ « الربيع » ليتغنى بصعودِ أصواتِ الطبقةِ العاملةِ و اعتمادِ نظريات ماركس السياسيةِ و الاقتصادية لدى شريحةٍ من الشبابِ الروسي[18] . أما رونيه جيرو، و هو مؤرخٌ فرنسيٌ مختصٌ بالعلاقات الدولية، فها هو يستخدمُ تعبيرَ « خريف الشعوبِ » عنواناً لإحدى مقالاته في صحيفة اللوموند في الرابع من شهر كانون الثاني عام 1990 [19] بمناسبةِ الاحتفالِ عام 1989 بمرورِ قرنين من الزمنِ على الثورةِ الفرنسية عادّاً أنّ هذا العام كان شاهداً على هزّاتٍ سياسيةٍ عارمةٍ أدّتْ إلى انهيارِ الأنظمةِ الشيوعيةِ في أوروبا[20].

---

[16] للمزيد حول هذه الفكرة، راجع :

Godechot, Jacques. & Palmer, Robert. (1955), « Le problème de l'Atlantique du XVIIIième au XXième siècle » in Comitato internazionale di scienze storiche. X8 Congresso internazionale di Scienze storiche, Roma 4–11 Settembre 1955. Relazioni 5 (Storia contemporanea). Florence, 1955 : 175–239

[17] راجع :

Lamartine, Alphonse. (1848), *Manifeste à l'Europe*, Pagnerre, Paris

[18] للمزيد حول هذه النقطة، يمكن مراجعة :

Bruhat, Jean. (1970), *Karl MARX, Friedrich ENGELS*, Éditions Complexe, Bruxelles, p. 280

[19] أُعيد نشر هذا المقال في المرجع التالي :

Girault, René. (1998), *Être historien des relations internationales*, publications de la Sorbonne, Paris

[20] يقول رونيه جيرو حولَ « خريف الشعوب » :

« *Certes, on se ridiculiserait à vouloir trouver une cause aux mouvements de l'" automne des peuples " dans la commémoration française. Mais on doit souligner combien la culture des élites et des peuples de l'Europe de l'Est doit à la symbolique de 1789 et aux images qui y sont attachées* »

ترجمتي للاقتباس : « قد يبعث على السخرية، بكل تأكيد، أن نعتبرَ أنّ السببَ وراءَ حركاتِ " خريف الشعوب " يكمنُ في إحيائِنا ذكرى الثورةِ الفرنسية، لكن علينا الإشارةُ هنا إلى مدى تأثرِ ثقافة النخبةِ و شعوب أوروبا الشرقية برمزيةِ الثورة الفرنسية و الصورِ التي ارتبطتْ بها »

تعاملَ المفكرون الفرنسيون، على وجهِ العموم، بحذرٍ مع استخدام تعبيرِ « ربيع الشعوب »، حتى في المؤلَّفِ الجماعيِ الذي صدرَ عام 1948 تحت عنوانِ *1848 في العالم، ربيع الشعوب* [21]، بإدارةِ المؤرخ فرانسوا فيتو، فإننا نجدُ أنّ تعبيرَ « ربيع الشعوب » قد تمَّ استخدامُه و ربطُه بأحداثِ أوروبا عقبَ الحربِ العالميةِ الثانية و تبعاتِ « الحرب الباردة » عليها و هي مرحلةٌ يصفُها كُتَّابُ المؤلَّف أعلاه على أنها تمثّلُ نقيضاً للربيع و تُدخلُ القارةَ في مرحلةٍ يجدرُ تسميتُها ب « شتاء الشعوب ». في المقابل، نجدُ بأنّ الصحافةَ و المفكرين الألمان كانوا أكثرَ حماسةً لتعبيرِ « ربيع الشعوب » الذي أخذَ تحتَ أقلامهم معاني الولادةِ تارةً و الوحدة الأوروبيةِ تارةً أخرى. لنأخذ مثلاً ما يمثّلُ هذا « الربيع » للمستشارِ الألماني بسمارك. في حديثٍ نُقِلَ عنه إلى صحيفةِ لوفيغارو الفرنسية و الذي نُشرَ في 18 آذار 1885، يحدّدُ المستشار الألماني بسمارك عام 1866 بدايةً حقيقيةً لظاهرةِ « ربيع الشعوب »، حيث إنه في هذا العام تحالفَ بسمارك مع الليبراليين ضدَّ الكنيسةِ الكاثوليكية بغرضِ الحدِّ من تمددِ سلطةِ هذه الأخيرةِ في السياسةِ مع أنّ بسمارك نفسه يعبّرُ عن هذه البدايةِ واصفاً إياها « بحلولِ بركةِ الله على ألمانيا » و « توحدِ كلِّ العناصرِ الألمانية »، و أنّ هذا الربيع بدأ بالزوالِ عندما أخذتِ الأحزابُ بالتنازعِ داخل مجلسِ الشعب و لم تعدْ تؤيدُ الوحدةَ الألمانية [22]. إذاً وفقاً لبسمارك، تعبيرُ « الربيع » يقابلُ وحدةَ الأمةِ الجرمانية بينما نجدُ أنّ هذا « الربيع » يحملُ مدلولاتِ « النهضة » لكثيرٍ من الكتَّابِ الألمان فيما يتعلقُ بمصيرِ الهويةِ السياسية للديانةِ اليهودية.

في مقالِه عن الثوراتِ كنقاطِ تحوّلٍ في مجرى التاريخِ و المسيحيةِ عندَ الكتّابِ اليهود الألمان المبشرين بالصهيونية[23]، يُعلِمنا مثلاً المؤرخُ الفرنسي ديلمير أنّ الثورةَ الفرنسية، حسب رأيِ الصحفيِ و الكاتبِ الألمانيّ موسى هيس، أدَّتْ إلى « ولادة الشعوب » التي

[21] راجع :
Le Printemps des peuples : 1848 dans le monde / ouvrage collectif dirigé par François Fejto, Éditions de minuit, Paris, 1948

[22] يمكنُ الرجوع إلى هذا العددِ من صحيفةِ لوفيغارو على الموقع :
https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k2792429/f4.item.r=printemps.zoom

[23] يمكنُ مراجعة :
Delmaire, Jean-Marie. (1989), « Révolutions, tournants de l'histoire et messianisme chez Heinrich Graetz et Moses Hess », Germanica [En ligne], 6 | 1989, mis en ligne le 28 novembre 2014, consulté le 30 Janvier 2020.
https://journals.openedition.org/germanica/2525

ترتبطُ فيما بينها بعاطفتِها الدينية إزاءَ اليهودية، كما يزوِّدُنا، في السياق ذاتِه، بفكرةٍ مفادُها أنّ موسى هيس كان يودُّ نشرَ مخطوطِه تحتَ عنوان « ولادة اسرائيل الجديدة أو ربيع الشعوب »، في حين تمَّ نشرُه في عام 1862، من قبل المؤرِّخ الألماني هينريتش غراتز، تحتَ عنوانِ آخرَ اقترحَه هذا الأخيرُ على هيس و هو « من روما إلى القدس : القضيةُ الوطنيةُ الأخيرة ». يضيفُ هيس بأنّ اليهوديةَ كديانةٍ « تاريخيةٍ و وطنيةٍ و كونيةٍ في ذاتِ الوقت » ستتيحُ للمؤمنين بها، في فرنسا، و ذلك منذ اندلاعِ ثورتِها عام 1789، بالعبورِ نحو « الوحدةِ العضوية للإنسانية داخلَ التنوعِ الذي تعرفُه الأممُ المتحررةُ »[24]. يعني هيس فيما سبق أنّ العالمَ برمّتِه لن يصلَ بثوراتِه إلى الخلاص الذي يمثّلُه الربيعُ طالما أنّ مصيرَ اليهودِ ما يزالُ قضيةً معلقةً، و منه جاءَ عنوانُ كتابِه.

نلاحظُ مما سبقَ أنّ التحفظَ إزاءَ استخدامِ « الربيع » كتوصيفٍ للأحداثِ التي طالتْ أوروبا، كالثورة الفرنسية و ثورات الشعوب، كان السمةَ العامةَ لدى المفكرين الفرنسيين و البعضُ منهم كان يستخدمُ تعابيرَ من نوع « نقيض الربيع » أو « شتاء الشعوب » أو « خريف الشعوب » للحديثِ عن ظاهرةِ الدومينو الثوريةِ في أوروبا. على الضفةِ الأخرى، دأبَ المفكرون الألمان على استخدامِ توصيف « الربيع » تارةً تحتَ معنى « الثورة »، و تارةً كمرادفٍ للوحدة كما هو حالُ المستشارِ بسمارك الذي ذهبَ حدَّ تقديمِ نفسِه كصانعٍ ل « ربيع » أوروبا بفضلِ توحيدِه الأمة الجرمانية [25]. أتى استخدامُ « الربيع » أيضاً كمرادفٍ لمعاني « النهضة » أو « الولادة الجديدة »، و ذلك في حديثِ بعض الكتّاب اليهود الألمان المؤسسين للصهيونية، على وجه الخصوص، و الذين كانوا يدعون لتأسيسِ دولةٍ توحِّدُ اليهودَ على أرضِ فلسطين.

نرى مما سبق أنَّ توصيفَ « الربيع » كان كالكرةِ يتقاذفُها المفكرون بين داخلِ حدودِ المفهوم و خارجِه، حسب تعبيرِ عالم اللسانيات كوليولي، إلى أنْ خرجَ نهائياً إلى مجالِ « alterity » في الخطابِ الإعلاميِّ الذي اعتمدتْه الصحافةُ الأميركيةُ لتسويقِ المسوغاتِ

[24] المرجع السابق نفسه

[25] للمزيد عن هذه الفكرة، يمكن الرجوع إلى :

Caron, J-C. (2016), « Printemps des peuples : pour une autre lecture des révolutions de 1848 », Revue d'histoire du XIX[e] siècle [En ligne], 52 | 2016, mis en ligne le 01 juin 2019, consulté le 31 janvier 2020. URL : https://journals.openedition.org/rh19/4988

حولَ احتلال قواتِ الإدارةِ الأمريكية للعراق عام 2003 و هو استخدامٌ عادَ بقوةٍ إلى الساحةِ الإعلاميةِ مع أحداثِ « الربيع العربي » 2010-2011.

قبلَ الذهابِ إلى مرحلة خروجِ معنى المفهومِ الأساسيِّ إلى مجالِ الضدِّ، و الذي تمثُّله بصورةٍ ملفتةٍ لغةُ الصحافةِ الأميركية آناءَ غزو قواتِ بلادِها العراقَ، نودّ أن نتوقّفَ قليلاً على نقطةٍ نعتبرُها أساسيةً هنا، ألا و هي تزامنُ تحرّكِ تعبيرِ « الربيع » نحو النقيض مع التحركِ التدريجي لمفهوم « الثورة » في شكلَيْها التمردي بأدواتٍ حضارية لخلقِ واقعٍ إنسانيٍّ أفضلَ من جهةٍ و التدميري الدموي و التكفيريّ لخلقِ الفوضى من جهةٍ ثانية، إلى أنْ توحَّد هذان الشكلان الثوريان ليصُبّا في مجال الشكلِ الثوريِ الثاني كما أظهرتْ وقائعُ غزو العراق وصولاً إلى « الربيع العربي ». على المستوى اللغويّ، ما كانت نتيجةُ هذا الحراك المتزامن لتعابيرِ « الربيع » و « الثورة » ؟ أصبحَ « الربيع » مرادفاً لشكلِ « الثورة » الفوضوي التدميريّ كما سنرى لاحقاً و أخذتِ الثورةُ بمعناها الذي ينطوي على الفوضى و الخرابِ بعداً إيجابيّاً بينما أصبحَ مفهومُ « النظامِ » التعبيرَ الذي يُستخدَمُ باستهجانٍ للإشارةِ إلى الحكوماتِ الاستبداديَّةِ و الديكتاتوريَّةِ بما يتناقضُ تماماً و معناهُ الأصليُّ المعاكسُ للفوضى و الدمارِ التي أمستْ عليها « الثورةُ »[26]. لنستعرضْ سريعاً مسيرةَ هذا التحركِ المتزامنِ للمفهومين في سياقِ المرحلةِ التاريخيةِ ذاتِها التي نحنُ بصددِ سردِها، أي بين الثورة الفرنسيةِ و « ثوراتِ الشعوب ». لعلَّ هذا الاستعراض يُرينا أنّ إثارةَ الضبابيةِ حول الفوارقِ المعنويةِ بين حراكٍ احتجاجيّ أو عصيانٍ أو تمرّد مقابلَ ثورةٍ مسلَّحةٍ و حربٍ ممنهجةٍ لم يكن، سابقاً منذُ الثورةِ الفرنسيةِ و لاحقاً

---

[26] أشارَ الرئيسُ السوريُّ بشار حافظ الأسد في عدّةِ مقابلات صحفيّةٍ معه إلى قضيةِ التلاعبِ بمصطلح « النظام »، نقتبسُ هنا مثالاً على ذلكَ مطلعَ جوابِه على سؤالٍ طرحَه صحفيُّ مجلةِ باريس ماتش عليه في المقابلةِ التي أجراها معه في 4 كانون الأول 2014 :

« السؤال التاسع : لنتحدَّثْ عن/ الدولة الإسلامية /.. البعضُ يقولُ أحياناً : إنّ النظامَ السوري شجَّعَ صعودَ المتطرفين الإسلاميين لتقسيم المعارضةِ.. ما ردُّكم على ذلك...

الرئيس الأسد : في سورية لدينا **دولةٌ**.. ليس لدينا **نظام**.. **لنتَّفقْ على المصطلحاتِ أولاً** [....] »

نصُّ المقابلةِ مترجمٌ للعربيةِ على الرابطِ التالي :

http://sham.fm/ar/article/54788.html

و نقتبسُ مثالاً آخرَ من المقابلةِ التي أجرتْها معه محطةُ فرنسا الثانية في 21 نيسان 2015 مقطعاً من جوابِه على السؤالِ السادس :

« لدينا مشاكلُنا في سورية. والحكومةُ مسؤولة.. وكلُّ واحدٍ منا مسؤول.. كلُّ مواطنٍ سوري مسؤول.. لكنّي أتحدَّثُ الآن عمّا جلبَ / داعش / إلى سورية. **إنها الفوضى**.. **وحكومتُكم ..أو إذا أردتَ القولَ : النظامُ الفرنسي.. إذا أردْنا استعمالَ المصطلحِ الذي يصفونَنا به**.. مسؤولٌ عن دعمِ أولئكَ الجهاديين الذين سمُّوهم / المعارضةَ المعتدلةَ / »

www.voltairenet.org/article187390.html

مع الغزو الأميركي للعراق و سياسةِ المحافظينَ الجدد لخلقِ « ربيع الشرق الأوسط الجديد »، أمراً عبثياً، كما ستؤكدُه لنا فيما بعدُ لغةِ أكثرِ الصحافةِ الأميركيةِ و الغربيةِ عموماً.

في تموز 1833، خلال نقاشٍ تصادمَ فيه، في جلسةٍ لمجلسِ النواب، الماركيزُ دو لافاييت مع غايتان دو لا روشفوكو و هو ابن الدوق لاروشفوكو، بخصوصِ منحِ معاشٍ تقاعديٍ لمقتحمي سجنِ الباستيل. عارضَ غايتان هذه الفكرة فما كان من لافاييت إلا أن ذكّرَه بما قالَه والدُه، الدوق لاروشفوكو، للملكِ لويس السادس عشر الذي كان يصرخُ مذعوراً من الفوضى و الخرابِ خارجَ قصرِه في تموز 1789 واصفاً إياها بالتمردِ (أو بالشغبِ أو الفوضى في رواياتٍ أخرى). يأتي جوابُ الدوقِ هنا على استهجانِ الملكِ « لا سيدي، إنها ثورة (ثورة عارمة)! [27]» ليشيرَ إلى الفارقِ اللغويِّ بين التعابيرِ التي استخدمَها الملكُ و بين ما هو عليه الأمرُ حقيقةً بالنسبةِ للدوق. لنقفز هنا لبرهةٍ إلى القرنِ الواحد و العشرين، و تحديداً إلى عامِ 2017، حيثُ قدّمَ الرئيسُ الفرنسيُّ الحالي، ايمانويل ماكرون، الكتابَ الذي يشرحُ فيه برنامجَه الانتخابيَّ تحتَ عنوان « ثورة Révolution » مبتدئاً إيّاه بحرفٍ كبيرٍ في إشارةٍ إلى أنّ برنامجَه يحملُ للشعبِ الفرنسي تغييراً كبيراً في حياتِهم يماثلُ ذلك الذي صنعتْه لهم يوماً الثورةُ الفرنسية و التي تُكتبُ كلمتُها باللغةِ الفرنسية مبدوءةً بحرفٍ كبير. ياللمصادفة ! فالرئيسُ الذي أعلنَ في برنامجِه الانتخابي حملَ بذورِ الثورةِ الإصلاحيةِ لمجتمعِ بلادِه، ها هي شوارِعُها اليومَ تعجُّ، كلَّ يومِ سبت، بتظاهراتِ عارمةٍ لمرتدي السترات الصفراء ضدَّ سياسةِ حكومتِه التي ترفضُ الإشارةَ لما يحدثُ بكلمةِ « ثورة » و ينتقي لها كلماتٍ من قبيلِ « حراك و مظاهرات و تمرّد ».

لنعُد هنا قليلاً إلى مفهومِ « الربيع » بنكهتِهِ الثوريةِ، إذ أنّ سؤالاً ذو صلةٍ بماهيتِه لا بدَّ من طرحِهِ في هذا السياق : هل هذا « الربيع » طريقةٌ أم نتيجةٌ بالنسبة للمفكرين من المهللينَ له ؟ هل يمثّلُ هذا « الربيعُ » لهؤلاءِ النتيجةَ التي يرغبونَ أن تودّي إليها أعمالُ الشغبِ و الفوضى و التي يصطلحون لها تسميةَ « ثورة » في نسقٍ آخر، أم أنّ هذه الأعمالَ

[27] يذكرُ الكاتبُ هذه الحادثةَ في معرضِ حديثِه عن أحداثِ ذوي السترات الصفراء التي عمّتْ فرنسا منذ تشرين الأول 2018، و يتساءل إن كان ما يحدثُ حراكاً أم ثورةً على نسقِ الثورةِ الفرنسيةِ 1789. في صفحاتٍ أخرى، نجدُ هذه الأحداثَ تحت توصيفِ « تمرّد ». للمزيد يمكن الرجوع إلى :

Ojeda Mari, Victor. (2019), *Macron, on est là pour un monde meilleur même si tu ne le veux pas*, iggybook, Paris

هي بحدِّ ذاتها ما يرمزُ له « الربيعُ » عندَهم ؟ من خلال قراءتِنا لتاريخِ استخدام « الربيع » ضمنَ الإطارِ « الثوري »، يبدو لنا أنّ الكُتّابَ و الصحفيينَ يرون فيه الجانبَين المذكورَيْن أعلاه، أيّ الطريقُ و النتيجةُ معاً. يفسّرُ هذا الأمرَ تفضيلُ بعضِ الباحثين استخدامَ تعبيرِ « العمليّةِ الثورية [28]» بدلاً عن « الثورة »، خاصة فيما يتعلّقُ بتظاهرات ثوريةٍ انفجاريةٍ، كما هو « الربيع العربي » اليومَ على سبيلِ المثالِ لا الحصر، حيثُ إن شرارةَ بدايتِها تكونُ مدويّةً و تُدخلُ مجتمعاتِها في حالةٍ من الفوضى المستمرةِ، من دون نورٍ يشيرُ إلى نهايةِ نفقِها المظلمِ، و دون بوصلةٍ واضحةِ الإشارةِ للأهدافِ من اندلاعِها سوى الفوضى التي هي عليها. تحتلُّ « العملية الثورية » حيّزاً غيرَ محدّدٍ زمانياً و مكانياً، و هذا يفسّرُ من ناحيةٍ أخرى ظاهرةَ تناوبِ الثوراتِ حيث إنّ ثورةً تندلعُ في بلدٍ معين و يظهرُ فشلُها سريعاً تعقبُها ثورةٌ أخرى تحاولُ إعادةَ إحياءِ الأهدافِ الأساسيّةِ التي لأجلِها اندلعتِ الثورةُ الأولى قبل أن تحيدَ عن بوصلتِها، و يُطلَقُ عليها في هذه الحالةِ اسمُ « الثورة المضادة » و هكذا دواليك. و بذلك نجدُ شكلاً جديداً للمعارضة الثورية التي تولَدُ داخلَ صفوفِ المعارضة، و سرعانَ ما تنشقُّ عنها لتعارضَ ما « اعترضَتْ عليه » الصفوفُ التي وُلِدَت منها و أقامتْ لأجلِه « ثورةً » و لتحتكرَ لنفسِها عناوينَ « الثورةِ » الرنّانة. بذلك تكونُ المعارضةُ معارضةً لنفسِها و ل « أعداءِ » صفوفِ المعارضةِ في ذاتِ الوقت. يمكننا هنا أن نسوقَ انقلابَ نابليون الثالث كمثالٍ عن تلقّفِ القواتِ المعارِضة لمفهوم « الثورة » و تقاذفِه فيما بينها و انقسامِها على تعريفه. يصفُ الكثيرُ من الباحثين الانقلابَ الذي قامَ به لويس نابليون بونابارت عام 1852 ب « ثورة مضادةٍ » للتطلُّعاتِ « الديمقراطية » لثورةِ 1848 و رغبةً بالعودةِ إلى الحكمِ الملكي[29].

---

[28]للمزيد يمكن الرجوع إلى :

Pierret, Thomas., Allal, Amin. (2013), *Au coeur des révoltes arabes : devenir révolutionnaires*, Armand Colin / Recherches, Paris

[29]في كتابه الشهيرِ عن الاستشراق، يتحدثُ الكاتبُ الفلسطينيُ الأصل إدوارد سعيد عن الانقسام الذي حصلَ بين الشرق و الغرب، و دخولِ الحملاتِ إلى المشرق تحتَ ذرائعَ محاربةِ البربريةِ و نشرِ الحضارة، و هي التعابيرُ ذاتُها ملخصةٌ في كلماتٍ مثل « ربيع عربي » و « محاربة الإرهاب (الإسلامي) » و « نشر الديمقراطية و الحرية » التي استخدمتْها مثلاً إدارةُ المحافظينَ الجددِ في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكية لتطويع الرأي العام بما يخدمُ احتلالَها لأرضِ العراق و نهبِ خيراته. يتساءلُ سعيد في هذا السياقِ عمّا إذا كانتِ الإمبرياليةُ الحديثةُ قد اختفتْ، أو أنّها استمرّتْ بوجودِها حقيقةً منذُ دخولِ نابليون بونابارت إلى مصرَ عام 1798. و لأنّ هذه الإدارةَ الأميركية بحاجةٍ دوماً إلى خلقِ عدوٍّ جديدٍ، و شيطنتِه بغيةَ تجميلِ حملتِها ضدَّه، و إقناعِ الرأي العالمي بأنه حيثُ تدخلُ قواتُها المحتلَّةُ

نرى هنا ضرورةً للتوقُّفِ هنيهةً على المعنى الأصليِّ للديمقراطيّة[30]. هذه الكلمةُ التي انتشرتْ في عالمِ الصحافة و وسائلِ الاتصال الاجتماعي كالنارِ في الهشيم ضمنَ معنى المساواةِ في معاملةِ المواطنين في الحقوق و الواجبات تعني في الأصل شيئاً آخرَ لا علاقةَ له باستخدامِها الشائعِ اليوم. حسب الباحثِ في تاريخ سوريا القديمة أحمد داوود، كلمةُ « ديمقراطية » مؤلفةٌ في الأساسِ من جزئين : الجزءُ الأول « دِمو » في السريانية : الدم و الشبيه و المثيل و الإنسان، و التراثُ العربيُ يذكرُ ناحيةَ خلقِ الخالقِ للإنسان على شاكلتِه و من هنا جاءَ الاسم « آدمو (آدم) » بمعنى الشبيهِ و المثيل و الإنسان. أمّا الجزءُ الثاني « قراطيو »، ففي القاموسِ السرياني نجدُ الفعلَ « قُرِط » بمعنى سجّلَ و دوّنَ و قيّدَ و حفرَ و كتبَ و نقشَ، و بذلك يكونُ لدينا المعنى الحاصلُ من الجزئين و هو الشخصُ المسجَّلُ (في سجلات الدولة). يفسرُ هذه التسميةَ حرصُ الأسرةِ السورية منذ القِدمِ على نقائِها من الفسادِ نتيجةَ الزواجِ مع أفرادٍ من دمٍ غريب عن السلالةِ السورية فأصبحَ تعبيرُ « الحرّ » في العشيرةِ السورية يدلُّ على مَن وُلِدَ من زواجٍ شرعيٍّ داخلَ العشيرةِ، بينما كان يُطلَق اسمُ « الأنغال » على مَن ليس لهم سجلٌّ في قيودِ الدولة. لذلك، انطلاقاً من أهميةِ أن يحصلَ المولودُ على كاملِ حقوقِ المواطنة، فإنّ الأبَ الأثيني أو الإسبارطي أو الأرقوسي كان يأتي إلى مذبَح الجدِّ المقدَّسِ و يقسمُ بأنّ ابنَه هو من زواجٍ شرعيٍّ مع زوجةٍ معروفةِ النسبِ بالقول « amuno upper ton **heron** أمونو أوفر تون **حيرون** »، أي إنّ الأبَ يقسِمُ بعدَ أن يسجلَ مولودَه في سجلاتِ الدولة بأن يمارسَ عبادةَ ربِّ المدينة و يحاربَ في سبيله. ما إن يتمَّ تسجيلُ المولود، يصبحُ من الممكنِ الإشارةُ له ب « دِمو قراطيو » أي إنه عضوٌ من العشيرة أو الأخويّة له ما لها و عليه ما عليها و هو من اليوم **سيدٌ حرٌّ**. الملفتُ في « الربيع العربي » ذاتِ الصلةِ بنشْرِ « الديمقراطية »، أنّه كان بالنسبةِ لمقاتلي التنظيمِ الإرهابي داعش ربيعاً ل « الحريّةِ الجنسية » التي تمَّ تشريعُها و جذبُ الممتهنين لها من مختلفِ الشرائحِ العمرية في أنحاءِ العالمِ عبر ما يُسمَّى ب « جهاد النكاح » الذي نتجَ عنه الكثيرُ من الأبناءِ ضائعي

لا بدّ و أنْ يزهرَ الخيرُ، فإنّه الإسلامُ من أصبحَ ممثَّلاً ل « امبراطورية الشرِّ الجديدة » بعد الفراغِ الذي أحدثَه انهيارُ الاتحادِ السوفييتي :

Said, Edward. (1978), *Orientalism*, Pantheon Books, New York, pp. 373-374

[30] يمكنُ الرجوعُ إلى الرابطِ التّالي :

http://www.ahmaddaoud.com/article2.html?fbclid=IwAR3RoTvkdMuiMA2Zy813f5CoSBVkxe8xfkPqoxcwxDHMDzYOIBQ5-uqYABQ

النسبِ و الكثيرُ منهم لم يتمْ تسجيلُه في قيود الدولة للسببِ عينِه، و لعلَّ الإدارةَ الأميركية المؤسِّسةَ لهذا التنظيم حققتْ بذلك أحدَ أهدافها وراءَ « الربيع العربي »، ألا و هو قتْلُ « الديمقراطية » بمعناها الحقيقي و نشرُها بمعناها الذي تريدُه بحيث تُنشئ لنفسِها جيشاً في مختلفِ أنحاء الأرضِ من أشخاصٍ لا أوطانَ محددةَ لهم يشعرونَ إزاءَها بحسِّ الانتماءِ الوطنيِّ لها، و بذلك ينتفي الشرطُ الذي يجعلُ منهم أناساً أحراراً و تُنتَزعُ منهم قوةُ الدفاع عن البلادِ التي نشؤوا فيها في مواجهةِ القواتِ المحتلَّة.

بالعودةِ إلى مفهومِ « الثورةِ » و علاقتِه بمفهوم « الربيع »، يُجري بعضُ المحللين إسقاطاً تاريخياً لفكرة الانقسام على تعريف « الثورة » و يسوقونه إلى عصرنا، و تحديداً إلى أحداثِ « الربيع العربي » في تونسَ و مصر، فتراهم يصفونَ انقلابَ الرئيسِ المصري السيسي و مؤيديه في مصر في حزيرانَ 2013 على حكومةِ الإخوان ب « الثورةِ المضادَّة » ذلك أنّ بعضاً من مؤيديه كان قد ثارَ لأجلِ إسقاطِ حكم الرئيسِ السابق حسني مبارك الذي يحملُ صبغةً عسكريةً بالنسبةِ لهم، و أتتْ ثورتُهم حينها بممثِّلِ الإخوانِ محمد مرسي إلى الحكمِ، فثاروا عليه و أتوا بالرئيسِ السيسي الذي كان وزيراً للدفاعِ في حكومةِ الرئيسِ مرسي بعدَ أنْ كان ضابطاً في المنطقةِ الشماليةِ العسكرية في حكومةِ الرئيسِ مبارك الذي أسقطوا حكمَه أولًا.

صعوبةُ الاستقرارِ على تعريفٍ لمفهومِ « الثورة » بين قواتِ المعارضةِ جعلتْ من تعبيرِ « الثورةِ المضادَّة » تهمةً تتراشقُها فيما بينها. خيرُ مثالٍ على ذلك نستقيه أيضاً من حوليّاتِ الثورة الفرنسية. قامَ النوابُ الأكثرُ تشدداً للثورةِ، في فرنسا، في المؤتمرِ الوطني « الجبليين (la Montagne) »، و على رأسِهم المحاميُ و السياسيُ ماكسيميليان روبسبيير، و هو أحدُ أبرزِ وجوهِ عهدِ الإرهابِ في الثورةِ الفرنسية، بتوجيهِ تهمةِ « الضديَّة للثورةِ » إلى كلٍّ من الملكيّين (Royalistes) و إلى مجموعةِ النوّابِ المنتمين في المؤتمر الوطني إلى مقاطعةِ جيروند (Gironde)، و إلى مجموعةِ *ماريه* الأكثر اعتدالاً في المؤتمر (le Marais ou la Plaine). ثم حصلَ الانقسامُ داخلَ مجموعةِ *لا مونتاني* ذاتِها إلى مجموعتيّ الساخطين (Enragés) و الأذرعِ العاريةِ (Bras-nus[31]) التي وقفَت ضدَّ مجموعةٍ

[31] استُخدم هذا التعبيرُ للإشارة إلى العمالِ و الحرفيين و الفلاحين و ربّاتِ البيوت و كذلك المتسولين، أي إلى كلّ مَن يرفعُ كمّي لباسِه لإنجازِ عملٍ ما
Guérin, Daniel. (1969), *la Révolution française et nous*, La Taupe, Bertrix, chap 1

ثالثةٍ منهم أسستْ « لجنة السلامة العامة (Comité de salut public) »، و استمرَّ تراشقُ اتهامِ « الثورة المضادة » بين هذي المجموعات إلى أن تمَّت الإطاحةُ بروبسبيير من قِبلِ أعضاءٍ من المؤتمرِ الوطني دبروا مكيدةً له ليُعدَمَ بالمقصلة في 28 تموز 1794[32]. تراشقُ تهمةِ « الثورة المضادَّة » يمكنُ اسقاطُه أيضاً على « ربيع » عصرِنا الحديث، و تحديداً في تونس بُعيدَ اندلاعِ ثورتِها في شهر كانون الأول 2010. راحتِ الحركةُ الدينيّةُ التوجِّه المسمَّاةُ « النهضة » في تونسَ تتهمُ معارضيها، من اليساريين خاصةً، بأنّهم « ضدُّ الثورة »، و أنهم يناصرونَ العودةَ إلى النظامِ الحاكم سابقاً، في حين اتهمَ أقصى اليسار من الجبهة الوطنية أتباعَ حزبِ « النهضة » بكونهم « مضادّين للثورة ». و ليست مصادفةً هنا أن يكونَ الاسمُ الذي انتقاه لحزبِهم مَن يقدّمون أنفسَهم كممثلين للتيارِ الإسلاميّ في البرلمان، أيّ « النهضة »، يحملُ في مضمونِه أحدَ معاني « الربيع » و هو التجدّد الذي يزعمون نيّةَ تقديمِه لتونس منذ مجيئِهم إلى السلطة بعدَ الرئيسِ زين العابدين بن علي.

3.2 الإعلام، ساحةُ القوى العظمى لتدويرِ المفاهيمِ و إعادتِها إلى العامَّة

مع أحداثِ الحادي عشر من أيلول 2001 في الولاياتِ المتحدة الأميركية، و ما تبعَها كحملتِها العسكرية ضدَّ العراق، بدا واضحاً للجميع أنّ الإعلامَ هو إحدى أكثرِ الساحاتِ الحربية شراسةً لخدمةِ مشروعِها المتمثِّل ب « الفوضى الخلاّقة » التي من شأنِها، حسبَ تعابير إدارةِ المحافظين الجدد، خلقُ « الشرقِ الأوسط الجديد »[33]. لماذا نذكرُ هنا تعبيرَ «

---

[32] للمزيد من المعلومات حولَ هذه الحقبةِ، يمكن الرجوع إل :

Guérin, Daniel. (1973), *Bourgeois et Bras-nus. Guerre sociale durant la Révolution française* (1793-1795), Libertalia, Paris, réédition 2013

[33] جاهرَتْ بهذي التعابير، كوندوليزا رايس، مستشارةُ الأمنِ القومي في الإدارة الأميركية عام 2005. هذه التعابيرُ مستقاةٌ من نظريةٍ كان قد طرحها سابقاً مؤرخٌ أمريكي يُدعى ألفريد ثاير ماهان عام 1902 و الذي كان يُدعى الاستراتيجيُ الأميركي الأكثرُ أهمية لما قدّمَه من طرحٍ حول إمكانيةِ السيطرةِ على البلدانِ الأخرى عبر « قوةِ البحر » في كتابه *The Influence of Sea Power Upon History*، و كان هو أيضاً مَن استخدمَ للمرةِ الأولى تعبيرَ « الشرق الأوسط » في مقالٍ له في مجلة ناشونال ريفيو National review في لندن. شرعَ بتنفيذِ هذه النظريةِ البريطاني مارك سايكس، ضمن اتفاقياتِ سايكس-بيكو 1916، لتحويل هذه النظريةِ إلى أمرٍ واقع. و بذلك قسَّمت الدولُ المستعمِرةُ العالمَ إلى شرقٍ أدنى و شرقٍ أوسط و شرقٍ أقصى. من جانبه، يتحدَّثُ الأميركي صموئيل هنتنغتون عن « الفوضى الخلاقة » بوصفِها بفجوةٍ يشعرُ بها المواطنُ بين ما هو حالُه و بين الحالِ الذي يجبُ أن يكونَ عليه، و عندما تحيطُ القوى العظمى الحكوماتِ بالضغوطِ على صعدٍ مختلفةٍ اقتصادياً و اجتماعياً و سياسياً، فإنّ مشاعرَ الضيقِ لدى المواطنين سرعانَ ما تتفجرُ في هيئةِ احتجاجاتٍ على حكّامِهم مما يؤدّي إلى مزيدٍ من الفوضى و يصعِّبُ على الحكومات مهمةَ تلبيةِ كافةِ المطالب (*The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*, 2007, chap1). أخذَ مفهومُ « الفوضى الخلاقة creative chaos » أشكالاً

الفوضى الخلاّقة » بينما نحن بصدد الحديثِ عن مفهوم « الربيع » ؟ يمثّلُ تعبيرُ « الفوضى الخلاقة » بامتياز انتقالَ معنى « الربيع » إلى حيّزِ « alterity »، هذا بالإضافةِ إلى كونه يجمعُ بين النقيض « الفوضى » المذكورِ هنا كعمليةٍ « processus » يليها نعتٌ ملاصقٌ لمعنى « الربيع » المتكاثفِ داخلَ حدودِ المجالِ الأساسيِّ لمفهومِه و هو « الخلقُ »، و كذلك الحالُ بالنسبةِ لمعنى التجددِّ الخاصِّ بالربيع و الذي نجده في نتيجةِ عمليةِ الفوضى، أي « الشرق الأوسط الجديد ». بمعنىً آخر، ما الذي يفعلُه المتكلمُ عندما ينطقُ بتعبيرِ « الفوضى الخلاقة » ؟ إنه يستثمرُ في دلالاتِ المعنى الأساسي « identification » و يوظّفُها في عمليةِ تكثيفِ المفهوم خارجَ حدودِه بما يخدمُ عمليةَ ترسيخِ المفهومِ في المعنى المضاد « antithesis ». و بذلك يصبحُ المعنى الأساسيُّ للربيع، أي « الخلق »، نعتاً أي عنصراً يتمُّ إلحاقُه و إسنادُه إلى العنصرِ الأساسي (المسنَد إليه) و الذي باتَ هو الاسمُ الدالُّ على المعنى النقيض « الفوضى ».

لكن كيف نجحت الإدارةُ الأميركية بفرضِ هذه المفاهيمِ على الرأيِ العامِ بعد تعبئتِها بالمعاني المناقضةِ بُعَيد أحداثِ 11 أيلول ؟ فرضت الإدارةُ الأميركية رقابةً شديدةً على الإعلامِ بكافةِ مجالاتِه و أنواعِه، و الذي صارَ بدورِه يسوّقُ، على نطاقٍ واسعٍ، روايةَ المحافظينَ الجددِ. تفضي هذه الروايةُ إلى أنَّ أشخاصاً ذوي صلةٍ بتنظيمِ القاعدةِ قاموا باختطافِ طائراتٍ مدنيةٍ و قاموا بهجماتِهم على برجيّ التجارةِ العالميةِ و البنتاجون و أنّ الشعبَ الأميركيَ في خطر. أمام عدمِ قدرةِ الإعلامِ الأميركي على التشكيكِ بروايةِ المحافظينَ الجدد، فإنّ عالمَ اللسانيات نعوم تشومسكي و الباحثَ في مجال الاتصالات روبيرت ميكتشيزني، في كتابيهما حول دور الإعلام في نشر البروباغاندا، يتساءلان عمّا إذا كانتْ وسائلُ الإعلامِ و الاتصالِ الواقعةِ تحتَ سيطرةِ القوى العظمى تستحقُّ تسميتَها ب « السلطةِ

أخرى مبنيةً على المحتوى المعنوي ذاتِه ك « الفوضى البناءة constructive chaos » أو « التدمير البناء constructive destruction »، و كثيراً ما أُشيرَ إلى هذا المشروع باسمِ « التغيير الشامل في الشرق الأوسط global chaos » مع مايكل ليدن، العضو البارزُ في معهد أمريكا انتربرايز الذي يمثّلُ إحدى أهمِّ أوساطِ المحافظين الجدد، حيث ينطلقُ من فكرةِ القلقِ الذي يتسببُ به عدمُ الاستقرارِ في الشرق الأوسط، و أنّ كلَّ « تحوّلٍ ديمقراطي » يبدأُ بنوعٍ من « الفوضى الخلاقة » التي يمكنُ لها أن تنتهي بوضعٍ أفضلَ مما يعيشُه الشرقُ حالياً.

الرابعة »، و أنّه من الواجبِ إيقاظُ الوعي العامِ إزاءَ واقعِ الإعلامِ بدلاً من الاكتفاءِ بالتنبيهِ حول صحَّةِ الرواياتِ التي يتناقلُها[34].

بذرائعَ من نوعِ « محاربة إرهاب القاعدة و إنقاذ الشعب الأميركي[35] من هذا الخطرِ " الإسلامي "، و وضعِ حدٍّ لانتشارِ أسلحةِ الدمارِ الشامل، و نشرِ الديمقراطيةِ و الحريةِ و الحضارةِ مكانَها »، سوّغَ الرئيسُ الأميركيُّ آنذاك، بوش الابن، احتلالَ قواتِه للعراق و سرقةِ خيراتِه، و أعادَ استخدامَ تعبيرِ « الربيع » ملحقاً بتوصيفِ « العربيّ » في مناسبتين عدّهما انتصاراً للديمقراطيةِ و الحريةِ و هي : انتخاباتُ العراق بُعيدَ الاحتلالِ الأميركي لأراضيه عام 2005، و المظاهراتِ التي شهدَها لبنانُ بعدَ مقتلِ رئيسِ الحكومةِ آنذاك رفيق الحريري و إشارةِ فريقٍ مؤيّدٍ لسياسةِ المحافظينَ الجددِ الأميركيةِ في لبنان اصبعَ الاتهامِ لسورية و مطالبتِهم بخروجِ قواتِها. استخدمتْ صحيفةُ نيويورك تايمز في عددِها الصادرِ في الأول من آذار 2005 تعبيرَ بشائرِ « الربيع » لتوصيفِ الوضعِ في العراق منذُ الغزوِ الأميركي له حتّى ساعةِ الانتخابات، و يبدو الربيعُ في هذا العدد بشكلٍ صريحٍ مرادفاً لما أسمتْه « دمقرطة، عمليّة الديمقراطية (نشر الديمقراطية) democratization » و التي سمحتْ، حسبَ تعابيرِهم، ب « كسر الجليد cracks in the ice » حولَ الوضعِ السياسي الثابتِ في البلادِ العربية.

الشعاراتُ التي أطلقتْها الإدارةُ الأميركية لتبريرِ حروبِها أمامَ الرأيِ العام، و التي اختصرَها جميعَها الرئيسُ الأميركي السابقُ بوش الابن أولاً في جملةِ « حملةٍ صليبية (على

---

[34] للمزيد، يمكن الرجوع إلى :

Chomsky, Noam., McChesney, Robert. (2005), *Propagande, médias et démocratie*, Ecosociété, Pariss

[35]تحت ذريعةِ حمايةِ الشعب الأميركي من خطرِ « محور الشر »، و هو مصطلحٌ استخدمَه بوش الابن مستبدلاً تعبيرَ الرئيسِ ريغان « امبراطورية الشر » الذي يحملُ صِبغةً دينيةً، الذي يمتدُّ من حدودِ العراق إلى أطرافِ كوريا الشمالية، فإنّ بوش الابن أطلقَ في خطابه في 11 أيلول 2001 تسميةً أخرى على حملتِه العسكرية التي من شأنها نشرُ بذورِ « الربيع » في العراقِ و تشكيلِ « الشرق الأوسط الكبير » و هو « الحربُ الاحتياطية pre-emptive, preventive war » و التي تستطيعُ من خلالها الإدارةُ الأميركية القيامَ بحربٍ إزاءَ أيّ بلدٍ تدّعي الخوفَ من مخاطرِه على شعبِها من مبدأِ احترازي حتّى لو لم تتعرضْ لأيِّ هجومٍ من قِبله. مصطلحُ الحربِ الاحتياطيةِ صرّحتْ به آنذاك مستشارةُ الأمن القومي كوندوليزا رايس بقولها أن :

« Anticipatory self-defense is not a new concept »
https://www.nytimes.com/2002/09/28/arts/beating-them-to-the-prewar.html

الإرهاب) » خلالَ خطابِه الذي ألقاه في 16 أيلول 2001 بعدَ عودتِه من منتجعِ كامب دافيد : « this **crusade**, this war on terrorism is gonna take awhile »، ثم أصبحتْ هذه الحملةُ مشروعاً كاملاً لا يخصُّ العراقَ وحدَه، و قدّمَه بوشُ الابن باسمِ « الشرق الأوسط الكبير » في معرضِ حديثِه عن « الربيع العربي [36]» الذي يتجلّى على سبيل المثال في العراق بعدَ الغزوِ الأميركي. نلاحظُ هنا أنّ « الربيعَ » الذي تودُّ إدارةُ المحافظين الجددِ نشرَهُ في العراق، و إعادةَ هيكلةِ الشرقِ على أساسه، يأخذُ صِبغةً دينيةً متطرفةً و إقصائيةً من حيثُ إنّ هذه الإدارةَ تتصرفُ كما لو أنّها تتمتعُ بسلطةٍ سماويةٍ على الأرضِ تخولُها وحدَها من دون غيرِها معاقبةَ الحكوماتِ التي لا تتماشى مع استراتيجيةِ فوضاها « الخلاّقة »، و هذا يتبدّى بوضوحٍ مثلاً في المقالِ الذي كتبَه الصحفيُّ الأميركيُ جون أوسوليفان عام 1845 و الذي يحملُ عنوانَ « الإلحاق [37]»، حيثُ يستخدمُ فيه مصطلحَ « القدرِ الواضحِ (الحتميّ) » ليقولَ بأنّ « الأمةَ الأميركيةَ » قد قَدّرتْ لها حكمةُ الآلهةِ « Providence » أنْ تسيطرَ على القارةِ الأميركيةِ برمّتِها، و أن تغذّي لدى قاطنيها مشاعرَ الحريةِ و الديمقراطية[38]، و أنّ عليها أن تصلَ بنورِها إلى بقيّةِ العالم، و أن تتولّى قيادتَه لأنّها الأمةُ الحرةُ الوحيدةُ على الأرض[39]، و يقررُ أوسليفان في هذا المقالِ شرعيةَ

---

[36]استخدمَ المفكرُ الفرنسي جاك بونوا ميشان مصطلحَ « ربيع عربي » عنواناً لكتابه الذي يتكلمُ فيه عن انطباعاتِه بعد رحلةٍ قامَ بها في « الشرق الأدنى » حيثُ زارَ بلاداً تمضي فيها التقاليدُ و التراثُ جنباً إلى جنبٍ مع إنجازاتِ عصرِ الحداثة الأكثرِ إثارةً.

Benoist-Méchin, Jacques. (1959), *un Printemps arabe*, Albin Michel, Paris

[37]يحاولُ أوسوليفان في هذا المقال إقناعَ مجلسِ الشيوخ بضرورةِ ضمِّ تكساس إلى بقيةِ الاتحادِ ذلك أنّ أعضاءَ المجلس كانوا يخشونَ التوسعَ في ضمِّ الولاياتِ بسبب أعدادِ « العبيد » فيها و مخاوفِ الحربِ مع المكسيك.

[38]يؤكدُ أوسيليفان من جديد على مهمةِ أميركا في نشرش الحرية و الديمقراطية في مقالٍ آخر :

O'Sullivan, John. (1839), « The Great Nation of Futurity », in United States Magazine and Democratic Review

حيث يقول :

« *Yes, we are the nation of progress, of individual freedom, of universal enfranchisement. Equality of rights is the cynosure of our union of States...We move onward to the fulfillment of our mission--to the entire development of the principle of our organization--freedom of conscience, freedom of person, freedom of trade and business pursuits, universality of freedom and equality* »

[39] لا يمكننا هنا إلاّ أنْ نلاحظَ الشبهَ الكبيرَ بين ادعاءاتِ الإدارةِ الأميركية بامتلاكِها سلطةٍ « سماوية » لنشرِ السلام و محاربةِ الإرهاب حيثُ تريدُ مع ادعاءاتِ المنتمين إلى تنظيمِ داعشَ الإرهابيِّ الذي يمتطي كذلك الديانةَ الإسلاميةَ، و يقدّمُ أمراؤه أنفسَهم – باعتبارِ أنهم يُحْيون نظامَ حُكمِ السّلفِ الصالحِ، أيّ الخلافة، حسبَ زعمِهم - كعلماءَ ناطقين باسمِ العنايةِ الإلهية لمحاربةِ الكفارِ « ممَّن لا يؤمنون بعقيدتِهم » بكافةِ وسائلِ العنفِ و تحليلِ القتلِ لكلِّ من لا يتماشى و حركتِهم :

سلطةِ الأمةِ الأميركية بالقولِ بأنّ اللهَ معهم : « Providence is with us »[40]. يعاودُ الرئيسُ الأميركي بوش الابن التأكيدَ على سلطةِ الإدارة الأميركية « السماوية » لنشرِ « الربيع » في الوقتِ و المكانِ الذي ترتأي خلالَ الخطابِ الذي ألقاه في فلسطينَ مقتبساً من الكتابِ المقدس [41]. في هذا الخطاب، يضعُ بوش الابن شعوبَ العالمِ أمام خيارين، إما أن تكونَ مع سياساتِهم و إلاّ فمصيرُها الموت :

«*The choice here is stark and simple, the Bible says : I have set before you life and death, therefore, choose life. The time has arrived for everyone in this conflict to choose peace, and hope, and life* »

بناءً عليه، إمّا أنْ توافقَ الحكوماتُ على هكذا « ربيع » بالتعبيرِ عن تأييدها للإدارةِ الأميركية و إلاّ فإنّها في « محور الشر the axis of Evil » :

« You're either with us or against us in the fight against terror [42]»

إذا، لنشر بذورِ « الربيع » في « الشرق الأوسط » تحتَ عنوان « مكافحة الإرهاب »، لجأتْ إدارةُ المحافظينَ الجددِ إلى الإرهابِ نفسه و ذلك على مستوياتٍ عدّة. بدايةً عبرَ قمعِ حريةِ الصحافةِ في الولاياتِ المتحدة الأميركية ذاتِها كي لا تحيدَ أدواتُها عن الروايةِ الرسميةِ، و ثانياً عبرَ ترهيبِ مواطنيها بإثارةِ الرعبِ في نفوسِهم من « خطر الإسلاميين » الذين يرون في الإدارةِ الأميركية عدواً لهم حسبَ مزاعمِ هذه الأخيرة. هذه الفكرةُ يعبّرُ عنها عالمُ اللسانيات تشومسكي و أستاذُ الاتصالات ماكيتشيزني بالقولِ بأنّ ترهيبَ الشعوب هو إحدى أنجحِ الوسائلِ التي يمكنُ أنْ تلجأَ إليها قوةٌ ما لإخضاعِ مواطنيها و إجبارِهم على التصويتِ

« Blessed flag...covers all eastern and western extents of the Earth, filling the world with the truth and justice of Islam and putting an end to the falsehood and tyranny of jahiliyyah [state of ignorance] »

Joscelyn, Thomas. (29 September 2015). « US counterterrorism efforts in Syria : A winning strategy ? ». Long War Journal.

[40] يمكن الرجوع :

O'Sullivan, John. (1845), « Annexation », in United States Magazine and Democratic Review 17, no. 1 (july-august 1845), pp. 5-10

[41] هذا الخطاب مذكور في :

LaBerge, Bryan. (2003), *George W. Bush : in the Whirlwind*, Trafford Publishing, Bloomington, p. 242

[42] للمزيد حول هذا الخطاب :

https://edition.cnn.com/2001/US/11/06/gen.attack.on.terror/

بالإيجابِ إزاءَ أيّ تدخلٍ عسكريٍ تنوي القيامَ به، كما حدثَ آناءَ الغزوِ الأميركيِّ للعراق حيث كانت وسائلُ الإعلامِ الأميركية تلحُّ و تكرّرُ فكرةً مفادُها أنّ أسلحةَ « الدمار الشامل » التي « يمتلكُها » العراقُ ستُوَجَّه في المستقبلِ إلى صدورِ أبناءِ الشعبِ الأميركي، و أنّ أحداثَ 11 أيلول ليستْ سوى البداية. يضيفُ تشومسكي و ماكتشيزني أيضاً بأنّ وسائلَ الإعلامِ التي تقودُها السوقُ المهيمِنةُ تتجاهلُ بشكلٍ متزايدٍ و إلى حدٍّ كبيرٍ الأصواتَ التي تعارضُ سياسةَ الإدارةِ الأميركية، و قد أدَّى ذلك إلى أنّ وسائلَ الإعلامِ هذه باتتْ تقبلُ بسهولةٍ متناهيةٍ التعاريفَ التي يطرحُها عليها السوقُ المهيمِن و تعيدُ صياغتها بما يتناسبُ و منهج هذا السوق، فمثلاً « الإرهاب terrorism » تطرحُه بأنّه « ما يفعلُه الآخرون بنا what others do to us »، و أنّ « الدفاعَ عن النفس self-defence » هو « ما نقومُ به نحنُ إزاءَ الآخرين what we do to others »، و ذلك من أجلِ تعبئةِ موافقةٍ شعبيةٍ للأعمال العسكريةِ ضدَّ ما تسمّيه « الدولَ المارقةَ rogue states »[43]. يقولُ ماكتشيزني أيضاً بأنّ وسائلَ الإعلامِ عملتْ على نزعِ قدرةِ الشعوبِ على التأثيرِ سياسياً من خلالِ ضخِّها اليوميّ و المتكررِ لكمياتٍ كبيرةٍ من أخبارَ أقلُّ ما يُقالُ عنها أنّها « هراء » بغيةَ جنيِ المزيدِ و المزيدِ من الأرباح مهما كان الثّمن[44]. إذاً إنها البروباغاندا ما تستخدمُه السوقُ الحاكمةُ كإحدى أسلحتِها الأقوى في التلاعبِ بالرأي العام و الوصولِ به إلى تناولِ المفاهيم كما تريدُها دونما جدال:

« *The logic is clear، propaganda is to a democracy what the bludgeon is to a totalitarian state and that's wise and good because again the common interests elude the bewildered herd, they can't figure them out* [45] »

---

[43] أشارَ مندوبُ سوريةَ الدائم لدى الأممِ المتحدة بشار الجعفري إلى هذا النوع من الترهيبِ اللغوي مؤكداً أنّ بعضَ الدول أدخلتْه بخفةٍ في ميدان السياسةِ من أوسعِ الأبواب، و تلاعبَتْ بالمصطلحات جاعلةً في الإرهاب صنفَيْن : إرهابٌ حلالٌ و إرهابٌ حرامٌ و ذلك خلالَ الجلسةِ التي عُقدَتْ في الاثنين 16 تشرين الثاني 2015.
https://news.un.org/ar/audio/2015/11/341292

[44] النص الأصلي :
« effectively depoliticized with daily infusions of nonsense news by a media hell-bent on securing maximum profits » https://www.opendemocracy.net/en/article_1007jsp/

[45] نص المقابلة مع نعوم تشومسكي كاملاً على الرابط :
https://chomsky.info/199201__/

وسائلُ الإعلامِ المرتزقة هذه من مآسي الشعوب ساهمتْ، حسبَ رأي تشومسكي « عبر تلقينها الرأيَ العام مفاهيمَ السوق المهيمِن »، بأنْ تضعَه تحت ذاتِ « الحكمِ الشمولي المفروضِ عليها » بحيث أصبحَ هذا الرأيُ العام « قطيعاً مضطرباً مهمَّشاً دون بوصلة، مذعوراً يصرخُ بالشعارات الوطنية بسبب خوفِه على حياته و إعجابِه المصبوغِ بالرهبة إزاء قادَتِه الذين ينقذونَه من الخراب [46]».

بدوره أيضاً الصحفيُّ و الكاتب الأميركي جون نيكولس يحمِّلُ الإعلامَ مسؤوليةَ التهليلِ لرئيسٍ غير شرعيٍّ (بوش الابن) و لحربِه في العراق، و يضيفُ أنّ ما يجبُ العملُ عليه اليوم هو إعادةُ الهيبةِ لمهمّةِ جمعِ المعلوماتِ و امتلاكُ الشجاعة على قولِ الحقيقةِ في وجهِ السلطة :

« *The first thing you say is, we're not here to save the media that gave you George Bush in a stolen election of 2000 or gave you the war in Iraq. I mean, that was a lousy media system [..]. let's save some journalists. Let's save the concept of gathering information and speaking truth to power* [47]»

نلفتُ كذلك هنا الانتباهَ إلى ناحية ترويجِ أروقةِ الإعلام لموضوعِ تصنيعِ « الربيع » و تهجينِ بذورِه في مخابرِها قبل غرسِها في عمق الأرضِ التي تريدُ قوى الاحتلالِ وضْعَ يدِها على مقدَّراتِها. يهدفُ تحضيرُ « الربيع » بأيدٍ خارجيةٍ إلى القول، بطريقةٍ مباشرةٍ أو غيرِ مباشرة، أنّ البلادَ التي سيستهدفُها الاحتلالُ غيرُ مؤهّلةٍ حضارياً و فكرياً لإنتاجِ هذا « الربيع » بأدواتِها. نجدُ هذه الفكرةَ مثلاً في عنوانٍ استفهامي لمقالٍ حرّرَه الصحفيُّ الأميركي جيس والكر لمجلة *Reason*[48] :

« Arab Spring : Made in Washington ? »

---

[46] النص الأصلي :

Chomsky accuses the media of indoctrinating the public with « *what amounts to a form of self-imposed totalitarianism, with the bewildered herd marginalised, directed elsewhere, terrified, screaming patriotic slogans, fearing for their lives and admiring with awe the leader who saved them from destruction* ». *Ibid*.

[47] لقراءة المقال كاملاً، يمكن الرجوع إلى الرابط التالي :

https://www.democracynow.org/2010/2/4/robert_mcchesney_and_john_nichols_on

[48] يمكن الرجوع إلى :

Walker, Jesse. « Arab Spring : Made in Washington? », Reason Online, May 2, 2005

لنسترجع لغوياً جملةَ المفاهيم التي طرحتْها الإدارةُ الأميركية لتسويغ احتلالِها للعراق. تريدُ إدارةُ المحافظينَ الجددِ تحريرَ العراقِ من الإرهابِ « الإسلامي » و ارتباطاتِه بالقاعدة و تخليصَه من أسلحة الدمارِ الشامل. جملةُ هذه الأهداف لخصَها الرئيسُ السابق بوش الابن بمصطلح « الربيع العربي ». في الواقع، كيف تجلّى هذا « الربيع » في العراق ؟ دمارٌ اقتصادي، تشتّتٌ سياسي، فتنةٌ طائفية و انهيارٌ اجتماعي و انتشارٌ للجريمة. بمعنى آخر، تقعُ تجلّياتُ « الربيعِ » الأميركي في العراق خارجَ حدودِ مفهومِ « الربيع » و تصبُّ في حدودِ مفهوم « الإرهاب » الذي تقولُ الإدارةُ الأميركية أنّها أتت « الشرقَ الأوسط » لتحاربَه. إنْ قلَبْنا هذه المعطياتِ اللغوية بتبديلِ موقعِ « الربيع » و « الإرهاب » داخلَ الجملة فإننا نستعيدُ معنى « الربيعِ » الأصليِّ قبلَ خروجِ المفهوم إلى حقلِ « alterity » فنقولُ : إنّ الإدارةَ الأميركية أتتْ بلادَ الشرقِ لنشرِ « الإرهاب » عبرَ محاربةِ « الربيع ». و قبلَ أنْ تمارسَ الإدارةُ الأميركية الإرهابَ السياسيَّ و العسكري في بلادِ الشرق أو « الربيعَ » حسبَ تعابيرِها، فإنّها مارستْه أولاً بحقِّ شعوبِها عبرَ الترهيبِ اللغوي الذي فرضتْه على إعلامِها الذي قامَ بدورِه بتدويرِ مفاهيمِ الهيمنةِ و الدعايةِ لها على نطاقٍ واسعٍ و من ثمَّ إعادتِها للرأيِ العامِّ بصيغةِ « حقِّ الدفاعِ عن النفس ».

مع الانتخاباتِ الأولى التي قامَ بها العراقُ بُعيدَ احتلالِه عام 2005، سارعت الصحفُ الأميركية للتهليلِ بنصرِ بوش و حلولِ الربيعِ في ربوع العراق. عقبَ تلك الأيام، تلونَت الصفحاتُ الأولى لبعضِ الصحفِ الأميركية الكبيرة باللونِ البنفسجي، لمَ ؟ هذا اللونُ لم يكنْ سوى طريقةٍ إعلامية دعائيّةٍ أخرى عبّرتْ من خلالها الصحافةُ المكتوبةُ في أميركا عن إعجابِها أمامَ الرأيِ العام بنصر بوش في العراق حيثُ إنّ هذا اللون يرمزُ للونِ إصبعيّ الناخبين لدى خروجِهم من مراكزِ الاقتراعِ و هم يرفعون إشارةَ النصرِ، و سرعانَ ما أخذَ مصطلحُ « الربيع العربي » مع هذا الحدثِ مرادفاً جديداً و هو « الثورةُ البنفسجية ». المهمُّ أنّ « الربيع » حاضرٌ بطريقةٍ أو بأخرى بدلالاتِه الشكليّةِ على الرغم من أنّ مفهومَه أُفرِغَ من كلِّ محتواه الأصلي. بعبارةٍ أخرى، في معظمِ الصحافةِ الأميركية، خرجَ « الربيعُ » من حدود مفهومِه الأصلي و ترسّخَ خارجَه بمعانٍ مناقضةٍ تماماً و لم يتواكبْ استخدامُ هذين المعنيَيْن، الأصليّ و نقيضه، بسببِ الهيمنةِ التي فرضتْها إدارةُ المحافظينَ الجدد على حريةِ تعبيرِ الصحافة و الخناقِ الذي تمارسُه على المعارضين لنهجِها و الذين كانَ من الممكنِ لهم أن

يعيدوا « الربيع » إلى مجالِ مفهومه الأصلي عبرَ أقلامِهم إلى الرأيِ العامِ الأميركي و الأوروبي. لغوياً، تُسمى هذه العمليةُ « إخلاء المعنى »، و هي نظريةٌ تتحدثُ عن عمليةٍ شكليةٍ تهدفُ إلى تجنّبِ أيّ لبْسٍ في عمليةِ الإسنادِ في حالة تعدديةِ المعنى أو إلى تجنبِ التكرار في حالة كثرةِ المترادفاتِ بحيث يصبحُ المعنى أكثرَ وضوحاً و مباشرةً و يصبُّ ذلك في خانةِ الاقتصادِ المعرفي[49]. تفريغُ الدلالاتِ المعنوية لعنصرٍ ما « referent » و إسنادُ معنىً آخر إليه لا يحتويه أساساً هي إحدى نظريات علمِ السيمياء، و ترصدُ هذه الخاصيةُ تطورَ المعنى بحيث يشيرُ العنصرُ إلى دلالاتٍ مختلفةٍ عمّا كان عليه و أحياناً مناقضةٍ له[50]. لكن في حالتنا هنا، فإن نزوحَ « الربيع » نحو المعنى المضادِّ و بقاءَه خارجَ حدودِ المفهوم لا بلْ و تكاثفَه و تطورَه في هذا المجالِ الخارجيِّ ليس سوى إحدى نزعاتِ الهيمنة التي تسجلُها اللغةُ التي ترصدُ الإنسانَ عبر تاريخِه أيّما رَصد.

لاحظنا سابقاً مع تعبيرِ « الفوضى الخلاقة » كيفَ أنّ المتكلم يستثمرُ مجالَ مفهومِ المعنى الأصلي لتكثيفِ الضدِّ بوضعِه في موضعِ الملحقِ بالمعنى المضادِّ المتموضعِ خارجَ المفهوم بحيث يصبحُ هذا الأخيرُ هو المعنى الأساسي و الاسم الذي يمثّلُه هو عنصرُ الإسناد. في عمليةِ الإفراغِ اللغوي الظاهرةِ في تعبيرٍ من نوعِ « الثورة البنفسجية »، يقومُ المتكلمُ بالمحافظة على الدلالاتِ الشكليّةِ لمجال المفهومِ الأوليِّ ل « الربيع » كالألوانِ جاعلاً إياها أيضاً نعتاً للمعنى الذي يتموضعُ خارجَ حدودِ المفهوم أيّ « الثورة » هنا. كثُرَ استخدامُ استعاراتِ « الربيع » الملونة في توصيفِ الثورات، و ها هو من جديد، الرئيسُ الأميركي السابق بوش الابن يحاولُ أنْ يؤكدَ مرةً أخرى على « نصر » برنامجِه في « الشرق الأوسط » بمقارنتِه بالثوراتِ « الملونة [51]»

---

[49] يمكن الرجوع إلى :

Honeste, Marie-Luce. (2015), « Une approche expérientielle de la sémantique lexicale », In : Intellectica. Revue de l'Association pour la Recherche Cognitive, n°64, 2015/2. Sciences de la cognition : réflexions prospectives. pp. 87-112

[50] فكرةُ التفريغِ هذه نجدُها عند الباحثِ أمبيرتو إيكو :

« Evacuation, on the contrary, was not a property of the supposed referent, but a meaning aroused by the signification of the content corresponding to the supposed referent », Emberto, Eco. (1979), *A theory of Semiotics*, Indiana University Press, p. 86.

[51] أعمالُ الشغبِ التي اندلعتْ في التيبيت عام 2008 حملتْ كذلك اسماً يستندُ إلى الاستعاراتِ الملونةِ و هو « الثورة القرمزية ». نجدُ كذلك الأسماءَ ذات الصلةِ بالزهور كثورة التوليب أو الخزامى في قيرغيزيا عام 2005 و ثورةِ

خلالَ خطابٍ له في براتيسلافا في 24 شباط 2005 [52]:

« *In recent times, we have witnessed landmark events in the history of liberty : A Rose Revolution in Georgia, an Orange Revolution in Ukraine, and now, a Purple Revolution in Iraq* »

في لبنان، حادثةُ اغتيالِ رئيسِ الحكومةِ السابق رفيق الحريري و مسارعةُ فريقٍ لبنانيٍّ إلى توجيهِ اصبع الاتهامِ إلى سورية و غيرها من تبعات، كُلُّها تَمَّ توصيفُها في بعضِ الصحافةِ الأميركية بدايةً ب « ربيع بيروت » ليتطورَ التوصيفُ لاحقاً و يصبحَ « ثورة الأرز ». و بذلك عادتْ ترنُّ أصداءُ « الربيع » من جديدٍ في أروقةِ الصحافة الأميركيةِ على وجهِ التحديد. ها هو الصحفيُ كريستوفر ديكي و محرِّرُ موقع *the Daily Beast* يتغنَّى بالمظاهراتِ في لبنان في مقالٍ له في 14 آذار 2005 في صحيفة *Newsweek* يحملُ عنوانَ « الشرق الأوسط : ربيعٌ عربي Middle East : an Arabian spring » مُبدياً إعجابَه بألوانِ « الثورة » التي تدورُ في شوارعِ بيروت.

في هذا السياق، نودُّ أن نلفتَ النظرَ إلى أنّه مرةً أخرى تُظهرُ الإدارةُ الأميركية اهتماماً باختيارِ المصطلحاتِ و التعابير التي تأخذُ المشهدَ إعلامياً و سياسياً نحوَ المكان الذي يخدمُ مصالحَها، فعندما وصفتْ صحيفةُ بيروت ديلي (Beirut Daily) مظاهراتَ الفريقِ اللبناني ضدَّ الوجودِ السوري عقبَ اغتيالِ الحريري الأبِ ب « انتفاضةِ الاستقلال »، يُعلِمُنا الصحفيُ الأميركي جيفرسون مورلي أنّ بوش الابن فضَّلَ تعبيرَ « ثورة » لتوصيفِ هذه المظاهراتِ لأنّ « الانتفاضة » بالنسبةِ له تدلُّ على قضيةٍ لا هويةَ لها و يعني بذلكَ « فلسطينَ » المحتلَّة[53].

الأرز في لبنان عام 2005 و ثورةِ الزعفران في ميانمار عام 2007 و ثورةِ الياسمين في تونس 2010 و ثورةِ اللوتس في مصر عام 2011.

[52] للمزيد حول هذا الخطاب و غيره لرؤساء الولايات الأميركية، يمكن الرجوع إلى :

United States President. (2005), *Public Papers of the Presidents of the United States*, Federal Register Division, National Archives and Records Service, General Services Administration, p. 310

[53] فيما يتعلق برفضِ واشنطن لتعبير « انتفاضة الاستقلال »، جيفرسون مورلي يقول :

« *It's easy to see why the Bush administration prefers not to adopt the " intifada " label.* Intifada *is an Arabic word meaning " shaking off ". It was coined by Palestinians during their spontaneous uprising against Israeli military occupation in 1987. To speak of*

لا بدّ لنا هنا من الإشارةِ إلى أنَّ عدداً قليلاً من الصُّحفِ أظهرتْ حذراً تجاه استخدامِ « الربيع » كتوصيفٍ لسياسةِ الإدارةِ الأميركية و مجملِ الأحداثِ الجاريةِ في « الشرق الأوسط »، لكنّ الملفتَ في الأمر هو أنّه، و بسببِ الرقابةِ المشدّدةِ التي فرضتْها هذه الإدارةُ على مواطنيها، فإنّ هذه الصحفَ و المواقعَ الإلكترونيةَ بقيتْ مهمَّشةً و محدودةَ الانتشار، و لا تقَعُ مباشرةً تحتَ عينيّ القارئ كما هو الحال بالنسبةِ للصّحفِ التي تحابي روايةَ المحافظينَ الجددِ و التي يمكنُ القولُ بأنّها هي مَن تأتي إلى المواطنِ من دون أن يتكلَّفَ هو عناءَ البحثِ عنها. نُنوِّه أيضاً هنا إلى أنّ الحديثَ عن « الربيع » الأميركي بوصفِه زيفاً يمكنُ أنْ نسمعَه أيضاً بشفافيةٍ على ألسنةِ مريديه دون مواربةٍ أو حرج[54].

يعبِّرُ الدبلوماسيُ الفرنسيُ و العضو في الحزب الاشتراكي أوبير فيدرين، في مقابلةٍ أجرتْها معه صحيفةُ اللوموند، عن رأيه بالإصلاحاتِ التي تدّعي سياسةُ المحافظين الجددِ إحداثَها في الأماكنِ التي تدخّلتْ فيها عسكرياً بالقولِ بأنّ الديمقراطيةَ لا تُلقّن و لا يمكنُ فرضُها من الخارج و خاصةً عبر عملٍ عسكريٍ لأنها عمليةٌ داخليةٌ بحتةٌ، و أنّ نشرَ الثقافةِ الديمقراطية و احترامِ الأقليات عمليةٌ تتطلّبُ زمناً طويلاً، لذا فإنه من المبكرِ لبوش، حسبَ قوله، أن يهلّلَ لنصرِ مشروعِه[55].

أما جوزيه غارسون، الكاتبُ في صحيفة ليبيراسيون و العضو في مرصدِ شمالِ افريقيا و الشرق الأوسط، و إنْ كان قد شكّكَ في صحّةِ روايةِ بوش الابن حول نشرِ الحرياتِ و الديمقراطيةِ أو الربيعِ باختصارٍ في العراق، فإنّه يستخدمُ مصطلحاً جديداً لتوصيفِ هذا « الربيع » هو « الحربُ الجيدة bonne guerre » قائلاً بأنّ حملةَ بوش « ربيعٌ عربيٌّ »

Lebanon's " intifada " places this month's events in the tradition of the Palestinian's struggle against Israeli occupation »

Morley, Jefferson. « the Branding of Lebanon's Revolution », Washington Post, March 3, 2005 www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A1911-2005Mar2.html.

[54] اللوبي و رجلُ الأعمالِ الأميركي جاك أبراموف مثلاً في حديثٍ له مع السياسي و اللوبي الأميركي رالف ريد عام 1983 يقولُها بصراحة : « ليسَ من شأننا أن نبحثَ عن العيش المشتركِ بسلامٍ مع مَن يعارضُنا و إنما مهمتُنا تكمنُ في سحقِهم للأبد...لغةٌ وردية لحرياتٍ مزيفة...إنه ربيعٌ عربيٌ بأسلوبٍ ماكيافيلي »

Schuh, Trish. *The Arab American News*, May 2005

[55] للمزيد، يمكن الرجوع إلى :

Védrine, Hubert. « George W. Bush a-t-il raison ? », Le Monde, 25 mars 2005 https://www.lemonde.fr/idees/article/2005/03/25/bush-a-t-il-raison_631407_3232.html

لا يصدّقُه سوى السذَّجُ، و أنه كان من الممكن لها أن تكونَ « حرباً جيدةً » سوى أنّ الواقعَ يشيرُ إلى عكسِ ذلك[56].

تتلقّفُ صحيفةُ *لوريان لوجور* بدورِها، على لسانِ أحدِ صحفيّيها، برونو برمكي، « ربيعَ بوش » في العراق الذي تجلّى بالانتخاباتِ « الحرّةِ و الديمقراطيةِ » بسخريةٍ لغويةٍ خاصةٍ تنطوي على كثيرٍ من الاستعاراتِ و الصورِ ذات الصلة بالربيع كالإزهارِ و العطورِ و الألوانِ و الأعمار، ضمنَ مقالٍ يحملُ عنوانَ « الجرعة السحرية (الإكسير السحري) la potion magique » :

« *على وحوش فرانكنشتاين السياسيين أن يستمتعوا، لأنّه و منذ بدايةِ الهجومِ الأميركي على العراق في آذار 2003، فإنّ بلادَ ما بين النهرين أصبحتْ أرضاً* ***خصبةً*** *لكلِّ التجارب. تمَّت آخرُ هذه التجارب و التي تُدعى " انتخاباتٌ في بلادِ العجائبِ " تحتَ إشرافِ جورج بوش الابن و هو أستاذٌ مختصٌّ في علوم الخوارقِ و التواصلِ مع العالَمِ الآخر. و ها نحنُ إذاً ندعو العراقيينَ إلى قضاءِ وقتٍ ممتعٍ خلالَ* ***تفتّحِ الزهرِ*** *بغرضِ الخروجِ من الرتابة. قواعدُ اللعبةِ بسيطةٌ فعلى كلِّ عراقيٍّ أتمَّ* ***ربيعَه*** *الثامنَ عشر التوجّه إلى صناديقِ الاقتراعِ ليودِعَ فيها ورقةً طويلةً بأسماءِ 275 مرشحٍ لا يعرفُهم على الإطلاق. و ما إن ينتهي من إتمامِ واجبِه الانتخابي بمنتهى الضمير، فإنه سيُكافئُ لكن ليس بنجمةٍ توضَعُ على جبينه و إنما بشيءٍ من هذا القبيل إذ أنّه سيكونُ له الحقُّ بالحصولِ على* ***صباغٍ*** *مجانيٍ لأحدِ أصابعِه، و يفضَّل أن يكونَ على إبهامِه مع العِلم أنّ الإصبعَ الوسطى مستبعَد. حينها، أن يُلوّحَ بإصبعِه ليظهرَ مدى فخرِه بقيامِه بالتصويت قد يكونُ مدعاةً لسوءِ الفهم* [57]».

3.3 « الربيع » منذ 2011

عادتْ لغةُ الربيع لتصدحَ من جديدٍ في بلادِ العرب مع اندلاعِ الاحتجاجاتِ في تونس عشيّة 17 كانون الأول 2010، حيث بادرَ بائعٌ جوّالٌ يُدعى محمد البوعزيزي بإنارةِ أولى بشاراتِ

[56] يمكن الرجوع إلى :
Garçon, José. « Les vents fluctuants du changement », Libération du 12 mars 2005
https://www.liberation.fr/planete/2011/03/05/les-vents-fluctuants-du changement_719387

[57] يمكن الرجوع إلى النص الأصلي على الرابط :
https://www.lorientlejour.com/article/492946/La_potion_magique.html

هذا « الربيع » الذي يناشدُ « السلامَ و الحرية » بأنْ قامَ بإحراقِ نفسه، يا له من ربيعٍ حارّ ! الملفتُ في الأمرِ هنا أنّ بعضَ الصُّحفِ سارعَتْ هنا إلى مقارنةِ ما فعلَه البوعزيزي بما يفعلُه الفلسطينيون لمواجهةِ جنودِ الكيانِ الصهيوني على أرضِ فلسطين المحتلَّة، و بعضُهم استخدمَ لتوصيفِ ما فعلَه البوعزيزي تعبيرَ « العنفِ السلميّ une violence pacifique »، في حين أنّ جهادَ الفلسطينيين ضدَّ قوى الاحتلالِ تمَّ وصفُه ب « فعلٍ حربي acte de guerre »[58].

شهدت أحداثُ « الربيع العربي » التي ابتدأَتْ نهايةَ 2010 و مطلعَ 2011 انتشاراً واسعاً لوسائلِ التواصلِ الاجتماعي بين شريحةِ الشباب على وجهِ الخصوص، و هو الأمرُ الذي سهَّلَ امتدادَ بقعةِ المصطلحاتِ التي تمَّتْ إعادةُ تدويرِها و تحويلِها إلى الرأيِ العامِّ بفحواها الجديد.

لم يعرفِ الشبابُ العربي، قبلَ أحداثِ « الربيع العربي »، هذا الانغماسَ المُربِكَ و المثيرَ للشبهةِ بين خيوطِ الشبكةِ العنكبوتية، و كانت حركاتُ الاحتجاجِ التي طالتِ الشارعَ الإيرانيَّ عقبَ انتخاباتِ 2009 منصّةً لدخولِهم هذا العالمَ حيثُ إنَّ وسائلَ الإعلامِ دأبتْ آنذاك على التركيزِ و الضخِّ المتكررِ لكمياتٍ مهولةٍ من الأخبار عمّا يحدثُ في إيران، و لا ننسى هنا أن نشير إلى أنّ بعضَ الصحفِ سارعَتْ أيضاً في هذا الموقعِ إلى التبشيرِ بقدومِ « الربيع » إلى إيران. بالطبع، نظرةُ الغربِ الإمبريالي و الرأسمالي الدونيّةُ للمجتمعِ الإسلاميّ و للمجتمعِ العربيِّ على وجهِ العموم هو أحدُ الأسبابِ التي لأجلِها لم يكترثِ المسؤولونَ عن إدارةِ المواقع و وسائلِ الاتصالِ في العالمِ الافتراضي لجعلِه في السابقِ متاحاً بذاتِ السهولةِ التي صارَ عليها قُبيلَ أحداثِ 2010-2011 فبالنسبةِ لهؤلاء، المجتمعاتُ العربيةُ محكومةٌ بالتعصّبِ الدينيّ و بالديكتاتوريةِ و ليس بمقدورِها على هذا الحال التماشي مع التطورِ التكنولوجي، إضافةً إلى أنّ موعدَ حلولِ « الربيع » في هذه المجتمعاتِ لم يكن قد حانَ بَعدُ ليجلبَ للعربِ في جيوبِه أزاهيرَ الثوراتِ الرقميةِ التي من خلالِها تجلّى « ربيعُ الإنترنت » في ربوعِ البلادِ العربية.

أعطتْ وسائلُ التواصلُ هذه الشبابَ فرصةَ تبادلِ مشاعرِهم و أفكارِهم و معلوماتِهم و حتّى الإدلاءَ بإحداثياتٍ معينةٍ إزاءَ رياحِ « الربيع » العاصفةِ ببلادِهم فمنهم من جاراها و

[58] يمكن الرجوع إلى المقطعِ الذي يحملُ عنوانَ « الانتحار كفعلٍ سياسي » على الرابط التالي :
https://www.scienceshumaines.com/les-revolutions-arabes_fr_27108.html

منهم من تكبّدَ عناءَ مواجهتِها. بطريقةٍ ما، أصبحَ العالمُ الافتراضيُّ ميداناً يلتزمُ فيه الشبابُ العربيُّ سياسياً بقضايا أوطانِهم، عن وعيٍ أو عن جهل، على الرغمِ من أنّ جزءاً منهم لا بأسَ به لم يكنْ ملتزماً سياسياً بقضاياه خارجَ حدودِ هذا العّالَمِ الافتراضي.

ما الجديدُ الذي حملَه هذا « الربيعُ » على صعيدِ التواصلِ خلافاً لأحداثِ « الربيع » السابقةِ له تاريخياً ؟ الجديدُ يكمنُ ربّما في إمكانيةِ مراقبةِ أزاهير « الربيع » و هي تتفتَّحُ و بثِّ هذا الحدث مباشرةً من المكانِ و في الزمانِ الذي يحلُّ به « الربيع ». بذلك أسهمَ جزءٌ كبيرٌ من الشبابِ العربيِّ في صنعِ تاريخِهم بتسجيلِه مباشرةً عبرّ وسائلِ التواصلِ الاجتماعي، و أصبحتْ فيديوهاتُهم المصوَّرَةُ من موقعِ الحدث، و تسجيلاتُهم الصوتيّةُ و صورُهم المتبادلةُ مستنداتٍ « موثوقةٍ » تستشهدُ ب « مصداقيتِها » كُبرى المحطاتِ الإعلاميةِ و التي كانتْ في ريادتِها محطتا « الجزيرةِ » القطريةِ و « العربيةِ » السعودية. الحماسُ الذي اعترى هذا الشبابَ للمساهمةِ في القرارِ الوطني أنسى شريحةً واسعةً منهم مسؤوليةَ الكلمةِ و دورِها في تحديدِ مستقبلِ الأمة، أي إنّهم يسهمون في صنعِ تاريخِ بلادِهم من دون أن يعوا حقيقةً أنّ كلمةً صغيرةً أو كبيرةً يسهمون بنقلِها و نشرِها و استخدامِها، من دون كيلِها في ميزانِ العقلِ أو التريّثِ للتأكدِ من وزنِ مفاعيلِها أو صحّتِها، يمكن أن يكونَ ثمنُها أرواحَ مئاتِ و آلافِ الأبرياءِ من أبناءِ جلدتِهم.

اعتمادُ قنواتٍ عربيةٍ كبيرةٍ آنذاك على شبانَ لا علاقةَ لهم بمهنةِ الصحافةِ بغرضِ نقلِ المعلوماتِ من « أرضِ الحدث » أدخلَ إلى ربيعِ « ثورات 2011 » تسميةَ « الشاهد العيان »، و الذي أصبحَ لكلمتِه قيمةٌ تضاهي في بعضِ الأحيانِ تلكَ التي يتلفّظُ بها أكثرُ العاملينَ في ميدانِ الإعلامِ و الجيوسياسةِ خضرمةً. بعبارةٍ أخرى، حريةُ الاستخدامِ التي أتاحَها العالمُ الافتراضيُ أسهمت في خفضِ الشعورِ بالمسؤوليةِ إزاءَ مهمةِ « نقلِ المعلومة » و الدرايةِ بوزنِ المصطلحاتِ المستخدمةِ لتوصيفِ الأحداثِ المنقولة. و بذلك فإنّها وضعت الهواةَ في مجالِ الإعلام على قدمِ مساواةٍ مع من يتقدّمونَهم أجيالاً في خبرةِ العملِ الميداني و البحثيّ في مجالاتِ الاتصالاتِ و الصحافةِ و اللغاتِ و التحليلِ السياسيِ و العسكري، ذلك أنّها تجاهلَت أنّ نقلَ المعلومةِ من « أرضِ الحدث » يرتبطُ ارتباطاً وثيقاً ب « فنِّ اللحظة ». لكن لا بدَّ هنا من الاعترافِ باحترافيّةِ بعضِ المحطاتِ و المواقعِ و صفحاتِ العالَمِ الافتراضيِّ في

صنعِ بعضِ الأحداث و فبركتِها و بثِّ الوهمِ بحقيقةِ لحظيّتِها بما لا يتركُ مجالاً للشكِّ سوى عند البصيرِ بتاريخِها المهنيِّ و توجّهِها السياسي.

« الشاهدُ العيان » أو المواطنُ الذي يهلّلُ في بثٍّ مباشرٍ لإحدى تجلياتِ « الربيع »، و الذي اعتقدَتِ المحطاتُ المضلِّلة أنّه سيسهمُ في رفعِ أسهمِ مصداقيتِها لدى الرأيِ العامِّ باعتبارِ أنه يجعلُنا بدورِنا كمشاهدين وراءَ الشاشةِ نشهدُ على تاريخِنا قيدِ الصنع، أصبحَ هو ذاتُه سبباً لسقوطِها في وحلِ الزيفِ كلّما طالَ أمدُ « الربيع » الذي تساهمُ بنشرهِ و إطالةِ عمره في رحابِ البلادِ العربية. هذه المحطاتُ التي لطالما قدّمت نفسَها كناطقٍ باسمِ الشعوبِ عملتْ على زيادةِ الوهمِ لديها بأنّ هذا « الربيعُ » هو مطلبُها و غايتُها و بوابةُ القدرِ التي ستقودُها إلى فردوسِ الأرضِ، لذلك تراها لا تكفُّ عن بثِّ مظاهراتٍ يعتليها شعارُ « الشعب يريد » لتبرمجِها في نهايةِ المطافِ على أن تريدَ ما أُريدَ لها و أن تشاركَ المستبِدَّ، عن وعيٍ أو عن قلةِ دراية، جريمةَ قتلِ نفسِها بيديها. وسطَ هذه الغوغائية، أصبحَ صوتُ العقلِ خافتاً جداً مقارنةً بكلِّ الجلبةِ التي ينطوي عليها « ربيعُ 2011 » من تفجيراتٍ إرهابيةٍ و مذابحَ جماعيةٍ و قنصٍ و تشريد. شيءٌ آخرٌ لا بدَّ من لفتِ الانتباه إليه، و هو الدورُ الذي لعبَه الإعلامُ خلالَ « الربيع العربي » في تسويقِ مشاهدِ العنف التي كانت تنشرُها التنظيماتُ الإرهابيةُ من ذبحٍ و تنكيلٍ و تفجيرٍ بغيةَ الوصولِ، على مدى زمنٍ معينٍ من التكرار، إلى تسهيلِ استساغةِ العنفِ و غرسهِ في اللاوعي الجمعيِّ للرأي العامِّ و خاصّةً في تلك التسجيلاتِ التي تُبرزُ أعضاءَ هذه التنظيماتِ و هم يأخذون « السيلفي » مع ضحايا مجازرِهم[59] أو في تلك التي تصوّرُهم و هم يحثّون أطفالَهم على تقليدِ ما يرتكبون من مذابح،

[59] سلوكُ أعضاءِ التنظيماتِ الإرهابية أمامَ الكاميرا و في عينِ الإعلام من حيث تبسيطِ جُرمِ العنف لا بدَّ من أن يذكّرَنا بصورِ التعذيب المهولةِ في سجنِ أبو غريب خلالَ فترةِ الاحتلالِ الأميركي للعراق، و التي كان يظهرُ فيها ضباطٌ من الاحتلالِ يضحكون و يلتقطون الصورَ الشخصيةَ مع إشارةِ النصرِ مع سجناءَ عراقيين تحتَ التعذيب أو في وضعياتِ إذلالٍ تُحدِثُ عند العامّةِ في البدايةِ نوعاً من الصدمةِ و الدهشة و من ثمَّ الخوفَ إلى أنْ يصلَ بهم الأمرُ إلى الاستسلامِ و التعوّدِ كمشاهدين. الصحفيُّ أرثر لوبيك يقولُ في مقالٍ له على شبكةِ فولتير أنّه مع تصاعدِ حركاتِ التحرّرِ الوطنيِّ في بلدانِ العالمِ الثالث و انتشارِ الفكرِ الشيوعي في بعضِ البلدانِ، فإنّ إدارةَ الرئيسِ الأمريكي كينيدي آنذاك ارتأتْ ضرورةَ إيجادِ منهجيةٍ لمكافحةِ التمرد. في عام 1963، تمَّ وضعُ أوّلُ كتيبٍ لهذه الغاية تحتَ عنوان *KUBARK Counter intelligence Interrogation* يشرحُ الهيئةَ التي يجبُ أن يكونَ عليها المحقّقُ و أساليبَ التعذيب الواجبِ اتباعُها للوصولِ بالضحية الواقعةِ تحت التعذيبِ إلى أن ينتابَها الشعورُ بأنها من تتسبَّبُ لنفسِها بهذا العنفِ لعدم رضوخِها إلى إرادةِ المحقق. في عام 1983، تمَّ نشرُ الكتيبِ الثاني الذي يُعدُّ بمنزلة كتابٍ مقدس في فنونِ التعذيب، و يحملُ عنوانَ *Human Resource Exploitation Training Manual* و جلُّ هذه الأساليب تمَّ ارتكابُها بالتفصيلِ بحقِّ سجناءِ أبو غريب لاحقاً، كما تمَّ منذ ذلك الحين إنشاءُ معسكراتِ تدريبٍ على هذه الأساليبِ تابعةٍ لمدارسَ عسكريةٍ في باناما و التايوان. عندما قررَ فريقُ الرئيسِ الأميركي ريغان مكافحةَ حركاتِ التحرر،

أي إنَّهم يقرنون تفاصيلاً من الحياةِ اليوميّةِ بفعلِ الجريمةِ في الوقتِ ذاتِه بحيث تغدو هذه الأخيرةُ « شرّاً محبَّباً » ينجذبُ إليه مئاتُ و آلافُ الشبانِ عبرَ العالمِ من الذين يريدونَ عيشَ « عصرِ الثوراتِ » بملءِ حواسِّهم. إحدى العباراتِ الملفتةِ التي استخدمَها أحدُ أعضاءِ هذي التنظيماتِ الإرهابيةِ خلالَ المقابلاتِ التي أجراها الصحفيُّ و الكاتبُ الفرنسيُّ دافيد تومسون مع « الجهاديين » الفرنسيين و التونسيين في سورية و العراق و التي يحتويها كتابُه « العائدون *Les Revenants*[60] » عن العائدين إلى بلادِهم من هذا « الجهاد » تفضي إلى أنّ ما يقومون به هو « جهادٌ يستطيعون من خلالِه إطلاقَ النارِ على البشرِ بينما هم يلتهمون المثلّجات »[61].

على صعيدٍ آخر، لا بدَّ من القولِ بأنَّ هذه الوسائلَ أتاحتْ للفريقِ المعارضِ للدمارِ و الإرهابِ و الخرابِ المساهمةَ بدورِه في الإشارةِ إلى موقعِ الزيفِ الذي تنقلُه بعضُ المحطاتِ و المواقعِ الإلكترونيةِ و « شهودِ العيان »، و ذلك على الرّغمِ من التضييقِ الذي كان يمارسُه المسؤولون عن إدارةِ العالم الافتراضي من حجبٍ لبعضِ الصفحات و إغلاقِ لحساباتٍ تصفُ « الربيعَ » بما هو عليه من دمويةٍ، كما أنّها أصبحتْ متنفَّساً لكلِّ من يعاني من الضغوطِ و الخناقِ الذي نتجَ عن أحداثِ « الربيع » الدمويِّ العاصف.

تقرّرَ في الوقت عينه ضرورةُ وضع كلمةِ « إرهاب terrorism » في كتيباتِ التعذيبِ هذه للإشارةِ إلى حركاتِ التحرر في العالَمِ المضادِّ لسياساتِ الإدارةِ الأمريكية. يقولُ لوبيك أيضاً بأنَّ الجدالَ الذي أُثيرَ في مجلسِ الشيوخ بُعيدَ نشرِ صور التعذيبِ في سجن أبو غريب لم يكنْ سوى وسيلةٍ لدفعِ الرأيِ العام للقبولِ بالعنف « جرّاءَ خوفِه من هؤلاء (الإرهابيين) بعدَ أحداث 11 أيلول » و تبريره و استساغةِ انتشارِه و اللّجوءِ إليه. و ينوهُ لوبيك إلى أنّ البنتاغون كان شديدَ الاهتمامِ بأساليب التعذيبِ التي ارتكبتْها فرنسا خلالَ فترة احتلالِها للجزائر و ذلك قبلَ دخولِ القواتِ الأميركية للعراق، و أنّ أساليبَ التعذيبِ هذه أصبحتْ إجراءً تقليدياً في سجونِ الصهاينة على أرضِ فلسطينَ المحتلة. دافيد كول، أستاذُ الحقوقِ يقولُ أيضاً في صحيفة *the Nation* في آذار 2003 أنّ الشكَّ الذي يتسببُ به الشعورُ بالخوفِ خطيرٌ لأنه يجيزُ اللجوءَ إلى التعذيبِ كلما سنحتِ الفرصة.

Lepic, Arthur. « Nouvelles applications à Abou Ghraib : Les manuels de torture de l'armée des États-Unis », Réseau Voltaire, 26 Mai 2004

[60] يعبّرُ الكاتبُ تومسون في كتابه *العائدون* عن مخاوفِه من الممارساتِ الإرهابية التي ستظهرُ في أوروبا جراءَ عودةِ أعضاءِ التنظيماتِ الإرهابية إلى بلادِهم بكاملِ خبرتِهم التدريبية.

Thomson, David. (2016), *Les Revenants : Ils étaient partis faire le jihad, ils sont de retour en France*, Seuil, Paris

[61] النص الأصلي و رابط المقابلة كاملة :

« Jihad où on peut tirer sur les gens et manger une glace en même temps »
https://www.lesinrocks.com/2016/12/05/actualite/actualite/david-thomson-jihad-repond-vide-ideologique-contemporain/

تزامناً مع تصاعدِ وتيرةِ الأحداثِ في تونس و في مصرَ من بعدِها ابتداءً من 25 كانون الثاني 2011، كانت لغةُ الإعلامِ و إلحاحُها على استخدامِ استعاراتِ « الربيع » تأخذُ بالتمدّدِ في كافّة الميادينِ الاجتماعيةِ و السياسيّةِ و الاقتصاديةِ و العسكرية، حيثُ سارعتْ بعضُ الصحفِ على تسميةِ ما يحدثُ في مصرَ ب « ثورة الياسمين » و حاولتْ في الوقتِ ذاته فرضَ تسميةِ « ثورة اللوتس » كتوصيفٍ للاحتجاجاتِ في ساحةِ التحريرِ في مصر. لنحاول هنا أنْ نتساءل حولَ هذه المسمياتِ بأبسطِ منطقٍ ممكن : « الياسمين » و « اللوتس »، كيف لهشاشةِ و رقّةِ هذه الورود أن تُحدِث ثوراتٍ بالعمقِ الزمنيّ و الهزّاتِ المتواصلةِ بين فعلٍ و ردّ فعلٍ كما رأينا في الواقعِ في تونس و مصر ؟ سؤالٌ كهذا، على بساطةِ طرحِه، يقودُنا من جديدٍ إلى الآليّةِ اللغويةِ التي تحدّثْنا عنها آنفاً، و التي أشرْنا من خلالِها إلى عمليةِ تحويلِ المعاني المتحصّلةِ في مجالِ المفهومِ الأساسيِّ لتصبحَ عنصراً لاحقاً في الجملةِ بما يخدمُ ترسيخَ المعنى خارجَ حدودِ المفهومِ، و يصبحُ هذا المعنى في مكانِه الجديدِ هو جوهر الجملةِ الذي تُسنَدُ إليه كلُّ الإضافاتِ الأخرى « modifiers ». بناءً عليه، فإنّ رقةَ الربيع و جمالَه هنا يعملان عملَ نعتٍ يُرادُ من وراءِ استخدامِها الشكليِّ الإشارةُ إمّا إلى نتيجةِ « الربيع » المرجوَّةِ التي لا بدَّ لها أن تغفرَ ما تقدَّمَ من فعلِ « الثورة » بما تنطوي عليه من عنفٍ، و إمّا إلى عمليةِ الثورةِ التي يمكنُ أن تطالَ أدقَّ الكائنات. « ثورةٌ ياسمينيّة » هي إمّا ثورةٌ يُرادُ لها أن تصلَ إلى نقاءِ الياسمين و جمالِه و السلامِ الذي تشي به نصاعتُه، و إما هي ثورةٌ ظاهرُها الياسمينُ الرقيقُ الذي يخبّئُ في جعبتِه « الثورةَ » كمعنىً لا يشي به ظاهرُ الكلمة. و كأنّ المتكلمَ يريدُ أن يبعثَ برسالةٍ غير مباشرةٍ مفادُها الحذرُ فما يظهرُ للعيان بمظهرٍ ضعيفٍ أو ساكنٍ دون حراكٍ يمكنُ أن يحملَ في داخلِه قوةً قادرةً على تحويلِ هذا الضعفِ أو السكونِ إلى « ثورة ». نوردُ هنا مثالاً آخراً حديثَ العهدِ عن هذه الآليّةِ اللغوية التي تنصُّ على وضعِ « الربيعِ » في موقعِ اللاحقِ للاسمِ الذي يعاكسُه في المعنى. هذا المثالُ نستقيه من محاولةِ قواتِ اِردوغان، ممثّلِ التيّار الديني المسمَّى ب « حزبِ العدالةِ و التنمية » في تركيا، بقضمِ قطعةٍ جديدةٍ من « الحلوى » السوريةِ في محافظةِ ادلبَ شمالَ غربِ سورية تُضافُ إلى ما تمَّ احتلالُه سابقاً و نعني هنا لواءَ اسكندرون. أطلقَ اردوغان على حملتِه العسكريّة ضدّ سورية في الأولِ من شهر آذار 2020 اسمَ « درعِ الربيع »[62].

[62] هذا المقالُ نجدُه على موقعِ فرانس 24 على الرابطِ في الأسفلِ تحت عنوان :

الأبعادُ اللغويّةُ التي تحملُها معنويّاً هذه التسميةُ تتيحُ لِاردوغان فرصةَ الظهورِ بمظهرِ المخلِّص الذي يحملُ في يديهِ الدرعَ التي من شأنِها حمايةُ « الربيعِ » الذي أسهمَ بشراسةٍ في نشرهِ في سورية، و في محافظتيّ حلبَ و ادلبَ على وجهِ التحديدِ، و هو ربيعٌ يتمثَّلُ بآلافِ المقاتلين الارهابيين الذين تُخشى عودتُهم إلى تركيّا و منها إلى أوروبا. من ناحيةٍ أخرى، يصبحُ « الربيعُ »، عبرَ هذه التسميةِ، مع كلِّ ما يحملُه من خفَّةٍ و حيويّةٍ و بهجةٍ، « درعاً » قويةً و ثقيلةً للتصدّي لمقاومةِ أهلِ البلادِ التي ينشرُ اِردوغانُ أزاهيرَ ربيعِه الارهابيّةَ على أرضِها.

في سياقٍ متّصلٍ، لم تغفلْ بعضُ الصحفِ عن علاقةِ « الربيع » العضويةِ بحالةِ الطقس، فها هو الصحفيُ الفرنسي ميشيل كولوميس يصفُ الحراكَ في تونسَ و مصرَ ب « الربيعِ المصادفِ في الشتاء ce printemps en hiver »[63]. في مقالٍ آخرَ له حولَ أحداثِ مصر، يصفُ كولوميس الحراكَ الذي بدأَ في ساحةِ التحرير ب « الربيع الشعبيّ printemps populaire » بينما يستخدمُ تعبيرَ « صيفِ الجنرالات été des généraux » لتوصيفِ قدومِ السيسي إلى الرئاسةِ بعدَ إسقاطِ حكمِ ممثّلِ الإخوان محمد مرسي، و القولِ بأنّ السيسي قطفَ ثمرةَ « الربيع » الذي صنعُه الشعبُ، و أنّ حراكَ المصريين أسهمَ في نضوجِ مخططِ السيسي[64].

في كلمة متلفزة عقب الانتخابات الرئاسية في أيار 2021، يشير الرئيس بشار الأسد إلى أن حركة الفعاليات الشعبية العفوية التي رافقت الانتخابات واستمرت بعيد إعلان النتائج أعادت الثورة إلى تعريفها الحقيقي حيث امتلأت شوارعُ البلاد بكل مظاهر الفرح و الابتهاج و الألوان و هي الحالة التي تجعل من « الثورة » هنا مرادفاً ل« الربيع ». يبقى أن نشيرَ هنا إلى فكرةٍ مفادها أن حركةَ المفهوم الأمامية بتقادم الزمن لا تعكس بالضرورة تطوراً إيجابياً. بناءً عليه، فإن إشارة الرئيس الأسد لكون القوى الشعبية، عبر إرادتها الحرة بتقرير مصيرها

« تركيا تشنّ عمليَّةَ " درعِ الربيعِ " ضدَّ النظامِ السوريِّ في ادلب و اِردوغان يلتقي بوتين الخميس »
https://www.france24.com/ar/20200302

[63] للاطلاع على المقال كاملاً في صحيفة لوبوان، يمكن الرجوع إلى الرابط التالي :
https://www.lepoint.fr/editos-du-point/michel-colomes/printemps-arabe-le-risque-est-pour-demain-05-02-2011-135941_55.php

[64] يمكنُ الرجوعُ إلى المقالِ كاملاً على الرابط التالي :
https://www.lepoint.fr/editos-du-point/michel-colomes/egypte-apres-le-printemps-populaire-l-ete-des-generaux-31-07-2013-1710196_55.php

دون ضغوط و اختيار رئيسها دون املاءات خارجية، يمثل حركة تطورية لمفهوم الثورة لكن بالاتجاه المعاكس، أي بالاتجاه الذي يخلق الصلة بين الألوان و الفرح الخاصة بالربيع مع حرية التعبير و الإرادة بعيداً عن سواد « الربيع العربي » و لون ثورته الدموية[65].

خاتمة

حاولنا في هذا المقالِ أن نتعرّضَ سريعاً لمناسباتِ استخدامِ تعبيرِ « الربيع » و « الربيع العربي » في ميادينِ الصحافة المكتوبةِ على وجه التحديدِ لما تنطوي عليه عمليةُ الكتابةِ من توثيقٍ لمراحلَ تاريخيةٍ معينة. الغايةُ من استطلاعِ استخدامِ هذا التعبيرِ هي إلقاءُ الضوء على المعاني المختلفةِ التي ساقَها إليه المتكلمون، و حاولنا تبيانَ آليةِ تكثّفِ المعنى و انتقالِه إلى المعنى المضاد و تكثّفِه في مجاله أيضاً مستندين في ذلك إلى نظريةِ العالم اللغوي كوليولي حولَ عملياتِ تشكيلِ مجال المفهوم.

أتاحَ لنا استعراضُ تواردِ تعبيرِ « الربيع » أن نتعرّفَ أيضاً على القالبِ التاريخي الذي استخدمَتْ فيه الصحافةُ آلياتِها في تضليلِ الرأي العام بغيةَ شنِّ حملاتٍ عسكرية، و تنفيذِ مخططاتِ إداراتِ الحكوماتِ التابعةِ لها، كما أنه مكنَنا من أنْ نرى إلى أيِّ مدىً للإعلامِ أن يُستثمَرَ كساحةٍ حربيةٍ متى ما نُزِعَتْ منه حريةُ التفكير ليورِثَ بدوره الرأيَ العامَّ الذي يتوجَّه إليه حالةَ القطيعيةِ و قمعَ حريةِ التفكيرِ التي يعاني منها.

---

[65] أشار الرئيس بشار الأسد إلى تقويم الشعب العربي السوري لمفهوم « الثورة » خلال كلمته المتلفزة عبر مقارنته تجليات الفرح و الألوان و البهجة التي رافقت فعاليات الانتخابات الرئاسية بحالة « الثوران » و الهيجان التي يجسدها الثور عند رؤيته للون الأحمر، لون ثورات « الربيع العربي » الدموية :
« لقد أعدتم تعريفَ الوطنية وهذا يعني بشكل تلقائي إعادة تعريف الخيانة، والفرق بينهما هو كالفرقِ بين ما سمي ثورةَ ثوار، وما شهدناه من ثورانِ ثيران، هو الفرق ما بين ثائرٍ يتشرب الشرف، وثور يعلف بالعلف، بين ثائر نهجُه عزٌّ وفَخار، وثورٍ يهوى الذلَ والعار، وما بين ثائر يركع لخالقِه، وثور يخر ساجداً أمام الدولار ». لقراءة الكلمة كاملة، الرجوع إلى الرابط :
https://www.sana.sy/?p=1397197

« الربيعُ » الذي من شأنِه أن يعزفَ موسيقى الفرحِ باتَ مصدراً ل « الضجة الإعلامية » التي تُثَارُ حولَ أصغرِ الأحداثِ و أكثرِها جدليةً على السواء، و تعيقُ دقّةَ السمعِ و تجعلُ فهمَ الكلامِ و رؤيةَ المشاهِدِ على السواءِ « ضبابيةً »، ممّا حدا بالكثير من الإعلاميين و السياسيين، تحتَ وطأةِ الخوفِ من اتّخاذِ موقفٍ ما في القضايا المفصليّة، من الوقوفِ في منطقةٍ « رماديةٍ » بين بياضِ الحقيقةِ و حلكةِ الفتنةِ و النفاق، ها هو « الربيعُ » من جديدٍ يسوقُ لنا ألوانَه الشتوية !

أما ما آلَ إليه مفهومُ « الربيع » بعد كل الأحداث الصاخبة التي ألمَّت بالوطن العربي، فما زلنا نشهدُ تجاذباً بين معاني « الثورة » و « الثورة المضادة » المستخدَمة للإشارة للربيع في تونس و مصر و ليبيا منذ 2011.

قديماً، قال أرسطو أنّ « مَن يروون الحكايا يحكمون المجتمعات [66]»، استناداً إلى هذه المقولة فإن السياقَ السوري تمكنَ على طريقته من إعادة رواية الأحداث التي تبثها القوى الإعلامية الكبرى و أفضى ذلك إلى واقع مختلف: توقفَ « الربيع » عن التطور في نطاق المفهوم المعاكس الذي وضعته فيه القوى الإعلامية و السياسية المهيمِنة، و ذلك نتيجةً للدور الذي يلعبه الشعب و الجيش في ظل قيادة رئيس الجمهورية العربية السورية بشار الأسد لإعادة التوازن إلى المنطقة العربية برمتها بعد الهزات العنيفة التي تسبَّب بها تسونامي الربيع، و لا نبالغ إن قلنا أن هذا التوازن يخص العالم برمته من الناحية الجيوسياسية. من الناحية اللغوية، يصب معنى« التوازن » هذا في نطاق مجال مفهوم الربيع الأساسي بينما يقع دومينو الهزات الناتجة عن التحركات التخريبية للبنى الاجتماعية و التحتية خارج هذا النطاق.

[66] مقولةُ أرسطو هذه ذكرَها الكاتبُ حسن .م. يوسف في مقالٍ له، في جريدةِ الوطن، يتحدثُ فيه عن دورِ الدراما في روايةِ قصصِ مجتمعاتِنا. المقالُ على الرابط التالي :

http://alwatan.sy/archives/233455

المراجع

مراجع عربية

داوود، أحمد. (2012)، ***موسوعة نينورتا التاريخية***، الجزء الأول : قصة الخلق، دار نينورتا، دمشق، ص. 275–276

داوود، أحمد. (1986)، ***تاريخ سوريا القديم : تصحيح و تحرير***، دار الصفدي، دمشق

مراجع أجنبية

Benoist-Méchin, Jacques. (1959), ***un Printemps arabe***, Albin Michel, Paris

Bruah, Jean. (1966), « **La Révolution française et la formation de la pensée de Marx** », https://www.persee.fr/doc/ahrf_0003-4436_1966_num_184_1_3873

Bruhat, Jean. (1970), ***Karl MARX, Friedrich ENGELS***, Éditions Complexe, Bruxelles, p. 280

Caron, Jean-Claude. (2016), « **Printemps des peuples : pour une autre lecture des révolutions de 1848** », Revue d'histoire du XIXe siècle, 52 | 2016, mis en ligne le 01 juin 2019, consulté le 31 janvier 2020.

Carsten, Martin. (2005), ***Freiheit, o Völkerfrühling!: Die Kollektivsymbolik der Jahreszeiten im politisch-lyrischen Diskurs des Vormärz*** *(1815-1849)*, Dortmund

Chomsky, Noam., McChesney Robert. (2005), ***Propagande, médias et démocratie***, Ecosociété, Paris

Culioli, Antoine. (1990), ***Pour une linguistique de l'Énonciation : Opérations et représentation***s (T. 1), Ophrys, coll. L'homme dans la langue, Paris

Culioli, Antoine. (1991), « **Structuration d'une notion et typologie lexicale. À propos de la distinction dense, discret, compact** », BULAG 17, Université de Besançon, 7-12, repris in T. 3 : 9-16.

Delmaire, Jean-Marie. (1989), « **Révolutions, tournants de l'histoire et messianisme chez Heinrich Graetz et Moses Hess** », Germanica [En ligne], 6 | 1989, mis en ligne le 28 novembre 2014, consulté le 30 janvier 2020.

Girault, René. (1998), ***Être historien des relations internationales***, publications de la Sorbonne, Paris

Godechot, Jacques., & Palmer Robert. (1955), « **Le problème de l'Atlantique du XVIIIème au XXIème siècle** », in Comitato

internazionale di scienze storiche. X8 Congresso internazionale di Scienze storiche, Roma 4–11 Settembre 1955. Relazioni 5 (Storia contemporanea). Florence, 1955 : 175–239

Guérin, Daniel. (1969), ***la Révolution française et nous***, La Taupe, Bertrix

Guérin, Daniel. (1973), ***Bourgeois et Bras-nus. Guerre sociale durant la Révolution française*** (1793-1795), Libertalia, Paris, réédition 2013

Honeste, Marie-Luce. (2015), « **Une approche expérientielle de la sémantique lexicale** », In : Intellectica. Revue de l'Association pour la Recherche Cognitive, n°64, 2015/2. Sciences de la cognition : réflexions prospectives. pp. 87-112

Joscelyn, Thomas. (29 September 2015), « **US counterterrorism efforts in Syria : A winning strategy?** », Long War Journal

LaBerge, Bryan. (2003), ***George W. Bush : in the Whirlwind***, Trafford Publishing, Bloomington

Lamartine, Alphonse. (1848), ***Manifeste à l'Europe***, Pagnerre, Paris

Lepic, Arthur. « **Nouvelles applications à Abou Ghraib : Les manuels de torture de l'armée des États-Unis** », Réseau Voltaire, 26 Mai 2004

Le Printemps des peuples : 1848 dans le monde / ouvrage collectif dirigé par François Fejto, Éditions de minuit, Paris, 1948

O'Sullivan, John. (1839), « **The Great Nation of Futurity** », in United States Magazine and Democratic Review

O'Sullivan, John. (1845), « **Annexation** », in United States Magazine and Democratic Review 17, no. 1 (july-august 1845), pp. 5-10

Pierret, Thomas., Allal Amin. (2013), ***Au coeur des révoltes arabes : devenir révolutionnaires***, Armand Colin / Recherches, Paris

Said, Edward. (1978), ***Orientalism,*** Pantheon Books, New York

Thomson, David. (2016), ***Les Revenants : Ils étaient partis faire le jihad, ils sont de retour en France***, Seuil, Paris

Umberto, Eco. (1979), ***A theory of Semiotics***, Indiana University Press

United States President. (2005), ***Public Papers of the Presidents of the United States***, Federal Register Division, National Archives and Records Service, General Services Administration

Walker, Jesse. « **Arab Spring : Made in Washington?** », Reason Online, May 2, 2005